أثر المرء في دنياه

د. محمد موسى الشريف

إهداء

إلى كل عامل مجتهد راغب في الخير والأجر.
إلى كل راغب في إحداث أثر في دنيا الناس.
إلى كل العاملين في حقول الدعوة الإصلاح.
إلى كل الغيورين على أمتهم: حاضرها ومستقبلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ژ ٱ ٻ پ ڀ ڀ پ ژ [الشعراء: 84].

وقال ﷺ : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) [أخرجه مسلم].

قالوا:
كن كغيث إذا أقبل استبشر به الناس.
وإذا حَطَّ نفعهم.
وإن رحل ظَلّ أثره فيهم.
وقالوا:

عظيم الهمة لا يقنع بملء أوقاته بالطاعات وإنما يفكر ألا تموت حسناته بموته.

وقالوا:

المحسن حيٌّ حتى وإن نُقل إلى منازل الأموات.

وقالوا:

ليست العبرة أن تضيف سنوات إلى حياتك ولكن العبرة أن تضيف حياة إلى سنواتك.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام عليى سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن اَعُدُّ من توفيق الله تعالى لي أني أخّرت الشروع في تصنيف هذه الرسالة إلى هذا الوقت، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولاً: أني جزت الخامسة والأربعين، وهو عمر كاف لإنضاج ما أريد كتابته، والوقوف على دقائق وتفصيلات تعين على تسديد البحث، وتقويمه، وكذلك هو عمر الاتزان والاعتدال الفكري والعاطفي.

ثانياً: جاء شروعي في هذا البحث [1] بعد تصنيفي لعدد من الكتب تُعد كالمهيىء له، والمؤسَس لكثير مما جاء فيه، فمن لوازم ترك الأثر أن يكون المرء صاحب همَّة، ثابتاً على الصلاح والعمل، متأدِّباً بآداب الشرع المطَّهر، بعيداً عن العجز والتسويف، مقبلاً على الله تعالى، راغباً فيما عنده، صاحب ثقافة عالية، وفي كل ذلك كتبت رسائل عديدة جاءت مهيئة لهذا الأمر ومؤسِّسة له.

ثالثاً: كثير من الناس في هذا الوقت قد عظم عندهم هذا المعنى، واشتعل في نفوسهم، ورغبوا في إحداث أثر في دنياهم، وربما كان هذا بسبب نضوج الصحوة إلى حد كبير، ولظهور بعض الأعمال والمشروعات التي هي مرآة عاكسة لجهود حثيثة تصب في قضية الأثر المنشود، وقد سئلت مرات كثيرة عن هذه القضية وكيفية تحقيقها، فجاءت هذه الرسالة لتجيب على هذه الأسئلة إن شاء الله تعالى، ولتكون معيناً لطالبي هذا المطلب العظيم.

فقد جاء تأليف الرسالة – إذاً – في وقت اشتدت الحاجة فيه إلى هذا الأمر، خاصة أن الأمة الإسلامية اليوم تجتاز مرحلة صعبة، ومخاضاً معقداً، ستعبر منه إلى فضاء التمكين إن شاء الله، وكل هذا يقتضي إيجاد عمل عظيم خالد في دنيا الناس على أيدي رجال عظماء ونساء عظيمات، وهذا ما أسميه بالأثر، وأدعو الدعاة إلى التفكير فيه ملياً عسى أن يُكتب لهم ويوفَّقوا إليه.

---

(1) كنت قديماً قد تكلمت في محاضرة عن هذا الموضوع المهم، ثم رأيت أنهلا بد من تصنيف كتاب في هذا الموضوع، فكانت هذه الرسالة، والله الموفق.

وقد بحثت في هذه الرسالة قضية الأثر الذي ينبغي أن يتركه المرء في دنيا الناس، وبينت أهميه، وكيفية الوصول إليه، وضربت الأمثلة المساعدة على تصور هذه القضية والمضيّ قُدُماً في تحقيقها، والله تعالى الموفِّق، وهو المستعان.

البريد الإلكتروني mmalshareef@hotmail.com

الموقع على الشبكة WWW.ALTREEKH.COM

تمهيد

يعيش معظم الناس على هذه الأرض مُدداً متفاوتة ثم يغادرونها، ولئن سألت عنهم، وعن آثارهم، وأعمالهم، لوجدت أنهم كانوا كسحابة صيف سرعان ما انقشعت ولم تمطر، وأنهم كانوا كسحابة صيف سرعان ما انقشعت ولم تمطر، وأنهم كانوا كظل سرعان ما زال، عاشوا سنوات طويلات ثم ماتوا، عاشوا فلم يسعر بهم أحد، وماتوا فلم يدرِ بهم أحد، ولعمر الحق ما هكذا يعيش العظماء، ولا هكذا يموت الأبطال.

والناظر لتاريخ البشرية من آدم – عليه الصلاة والسلام – إلى يوم الناس هذا يشاهد بوضوح أن العظماء من الرسُل والأنبياء وأصحابهم والصديقين والأوليات والعاملين من الصالحين هم الذين قامت عليهم الأعمال العظيمة، وهم الذين تولوا إنجازها، وهم الذين ذهبوا بأجرها، والباقون بين

ناظر وناكث، أو مشارك على استحياء ولرفع اللائمة عنه فقط، أو أن همته تعلقت بأعمال مرجوحة في الفضل والأثر فلا يدري هؤلاء ما فاتهم من الأجر العظيم والمنازل العالية.

وليس ترك الأثر بالأمر الهين السهل بل هو نتاج عمل طويل نافع، وعمر مديد، ونظر مفصّل، يصاحب كل ذلك توفيق من الله تعالى ودلالة وإرشاد، وهناك عقبات على الطريق، وآلام وآمال، وانتكاس وانتعاش، وتوقف ومعاودة، وإخفاق ونجاح، إلى أن يصل المرء إلى بغيته ويحقق هدفه.

وهو أمر جليل يهون أمامه كل صعب، وعظيم يُستصغر معه كل خَطْب.

والأمة الإسلامية اليوم تخطو إلى الكمال والرقي والسيادة، وتطمح إلى العزة والكرامة، وترنو إلى المجد والقيادة لكنها لن تصل إلى ذلك بالأماني، ولا بأنصاف الأعمال إنما ستصل – بعد توفيق الله تعالى وفضله – ببذل عظيم، وجهد كبير، وتضحيات جليلات، وأعمال كبيرة، ومشروعات رائدة، تنتج آثاراً خالدة في دنيا الناس، لذلك لم تكن أهمية ترك الأثر النافع الجليل مقصورة على الشخص نفسه ولا على زمانه الذي يعيشه إنما تكمن أهميته في العمل الضخم المبذول للوصول إليه، وفي النشاط الكبير الحاصل في المجتمع لتحقيق ذلك الأمل العظيم ثم في الفوائد الكثيرة التي سيجنيها ذلك المجتمع من تلك الآثار الخوالد. وكثرة الآثار الخالدة في شعب ما دليل على وعي كثير من أفراده، وأنه شعب قدّم الكثير في سبيل الحصول على ما حصل عليه، وهو شعب معطاء عامل،وقلة الآثار الخالدة ف شعب آخر دلالة على خمول أفراده وضعفهم، وتواكلهم، ورضاهم بالقليل، وإخلادهم إلى الأرض، والخلاصة أن الآثار الجليلة هي من أكبر المقاييس التي تقيس همم

الشعوب وعطاءها وبذلها وتضحيتها. ولم تخلف أمة من الأمم ما خلفته أمة الإسلام من آثار في جميع جوانب الحياة، لكننا نعاني من مشكلة كبيرة ألا وهي أن هذه الآثار كانت من صنع الآباء والأجداد، فماذا صنعنا نحن؟ وما الذي سنخلفه من آثار في الحياة؟ وهل سيجني أحفادنا من آثار أعمالنا ما نجنيه نحن اليوم من آثار جليلة لأجدادنا العظام.

إن قضية الأثر العظيم قضية مفصلية في حياة الأمم والشعوب، لا بدّ من تعظيمها في أذهان الناس صغارهم وكبارهم، لأن نواتج تلك الآثار هي الضامن – بعد عناية الله تعالى وتوفيقه – لمستقبل زاهر ونهضة باهرة، فمسألة ترك الأثر لا بدّ من تدريسها للطلاب في المدارس والجامعات، وتذكير الناس بها في وسائل الإعلام، وإعداد المجتمع وتهيئته للعناية بها، وإنزالها المكان اللائق بها في دنيا الناس، لأن قناعة الناس بها مقدمة مهمة لبدئ أعمال جليلة ومشروعات رائدة.

هذا ما أومن به، ودعوت إليه طويلاً، ولهذا كتبت هذه الرسالة، وسطرت هذه المقالة، والله الموفق.

المبحث الأول: ذكر الآثار
في كتاب الله تعالى وسنّة المختار ﷺ

الآثار في كتاب الله تعالى:

الله تبارك وتعالى ذكر هذه القضية في كتابه في مواضع عدية، منها:

في معرض ثنائه على الأنبياء العظام والرسل الكرام حين ذكر أحوال كل منهم، فعقب عليها جلّ جلاله بقوله : ژ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ژ [1].

أي: وتركنا ثناءً حسناً عليه [2] وهذا لأن أعمالهم عظيمة، وآثارهم جليلة، فحصل لهم الثناء الجليل على ألسنة الناس إلى يوم القيامة.

وقال تعالى: ژ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ژ [3].

وفي هذه الآيات الجليلات يثني الله تعالى على أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنهم أصحاب القوة والحكمة، وأنه جعلهم يذكرون الناس بالدار

---

(1) سورة الصافات في عدة آيات.

(2) انظر تفسير ابن كثير: 7/19-20.

(3) سورة ص.

الآخرة، لكن هناك تفسير آخر لذكرى الدار مناسب لهذا البحث، فقد قال الإمام القرطبي[1] بعد أن ذكر عدة أقوال في الآية:

((والدار يجوز أن يراد بها الدنيا: أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها نولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﮋ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﮊ [2] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها ... ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص أي بأن الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم))[3] وهذا التفسير جيد قوي، ومناسب لهذا البحث الذي يبين أهمية ترك الأثر، ومن خلصت له الذكرى في الدنيا فقد ترك أثراً عظيماً.

وقصّ الله علينا طلب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما قال: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﮊ [4].

فهو قد طلب من الله تعالى أن يبقى ذكره وعمله متردداً في الأجيال، قائماً على مر الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وقد أجابه الله

---

(1) هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، إمام متفنن متبحر في العلم. له تصانيف تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله، توفي سنة 671 بصعيد مصر التي انتقل إليها من الأندلس، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في ((الوافي بالوفيات)): 2/122-123.

(2) سورة مريم: آية 50.

(3) ((الجامع لأحكام القرآن)): 15/218.

(4) سورة الشعراء.

تعالى إلى طلبه بقوله ﮋ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﮊ [5] وهذا من أعظم الآثار المتروكة والأعمال المباركة.

وقال الإمام ابن كثير [1] رحمه الله تعالى: ((أي اجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أُذكر به، ويقتدي بي في الخير كما قال تعالى : ﮋ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﮊ [2].

والله تعالى قد عظّم قدر هذا النبي العظيم ﷺ وأمرنا باتباع صنيعه كله – إلا استغفاره لأبيه، وكان في هذا متأولاً ﷺ - فمن جملة اتباعه إذاً أن نحرص على هذا الذي دعا الله تعالى به من ترك الأثر الجميل والذكر الحسن.

وقال تعالى: ﮋ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﮊ [3].

وهذا في سياق مدح الأنبياء العظام: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

---

(5) الصافات: آية 108.

(1) هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصرويّ، عماد الدين، وُلِدَ سنة 700 أو بعدها بيسير، نشأ بدمشق وسمع من طائفة واشتغل بالحديث وجمع التفسير والتاريخ الذي سماه: ((البداية والنهاية)) وله عدة مصنفات سارت في البلاد، كان كثير الاستحضار حسن المفاكهة، مات سنة 774 وكان قد أضرّ في أواخر عمره. انظر: ((الدرر الكامنة)): 1/399،400.

(2) ((تفسير القرآن العظيم)): 6/257.

(3) سورة مريم، الآية 50.

((أي أثنينا عليهم ثناءً حسناً، لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم)) [4] وإحسان الثناء هو من جملة الآثار الحسنة التي يكرم الله تعالى بها بعض عباده.

وقال الأستاذ الطاهر بن عاشور [5] رحمه الله تعالى:((اللسان: مجاز في الذكر والثناء ... والصدق: بلوغ كمال نوعه ... فلسان الصدق: ثناء الخير والتبجيل. وقد رُتب جزاء

الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيباً بديعاً، إذ جوزي بنعمة الدنيا – وهي العقب الشريف – ونعمة الآخرة – وهي الرحمة – وبأثر تَيْنِك النعمتين وهو لسان الصدق، إذ لا يُذكر به إلا من حصل النعمتين))[1] .

وقال تعالى: ژ ۋ ۋ ۆ ۆ ۈ ۈ ې ېې ﭘ ﺭ ﮓ ئا ئا ئى ژ [2] .

قال الإمام ابن كثير الدمشقي رحمه الله تعالى:

((ونكتب ما قدموا)): أي من الأعمال.

---

(4) ((الجامع لأحكام القرآن)): 113/11، وهو أحد التفسيرين في الآية ، والتفسير الآخر أن كلمتهم مسموعة في قومهم.

(5) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وُلِدَ سنة 1296 بتونس، وعين عام 1932 شيخاً للإسلام مالكياً، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة متداولة ومقالات كثيرة في المجلات، توفي بتونس سنة 1393 رحمه الله تعالى. انظر: ((الأعلام)): 174/6.

(1) ((التحرير والتنوير)): 16/125-126 وفي قوله لا يذكر به إلا من حصل النعمتين نظر عندي – والله أعلم – إذ لا يلزم، إلا إن أراد نعمة الدنيا على إطلاقها .

(2) سورة يس : آية 12.

وفي قوله: (وءاثارهم) قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم فيجزيهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كقوله ﷺ: ((مَن سنَّ في الإسلام سُنّة حسنة كان له أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومَن سنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده من غير أن يُنقص من أوزارهم شيئاً)) **[رواه مسلم].**

ثم ذكر الإمام ابن كثير أن النبي ﷺ تلا هذه الآية في قصة الوفد من المضريين، وهي قصة مشورة ستأتي إن شاء الله تعالى.

ثم نقل عن سعيد بن جبير (1) رحمه الله تعالى تفسير قوله تعالى:(ونكتب ما قدموا وءاثرهم) يعني: ما أثّروا ، يقول: ما سَنُّوا من سنّة فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمله شيئاً، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزاره مَن عمله شيئاً.

ثم قال: **والقول الثاني:** أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية.

ثم ساق الإمام ابن كثير رحمه الله أحاديث في هذا المعنى، ثم قال: ((وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبه ودلالة على ذلك

---

(1) هو الإمام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد أبو محمد سعيد بن جبير بن هاشم الأسدي الوالبي بالولاء، الكوفي. روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وقرأ القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما. وكان من كبار العلماء، عاش 57 سنة، قتله الحجاج سنة 95 لخروجه في فتنة ابن الأشعث، انظر: ((سير أعلام النبلاء)): 4/321-343.

بطريق الأوْلى والأحرى، فإنه إن كانت هذه الآثار تُكتب فلأن تُكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى)) والله أعلم[2] .

الآثار عن النبي المختارﷺ :

قد وردت جملة من الأحاديث الشريفة المنيفة عن النبي ﷺ توضح عظم هذه القضية وأهميتها في الإسلام، فمن ذلك قوله ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدِ صالح يدعو له))[3].

وقد جاء في رواية أخرى أعمال أوسع تفصيلاً وإلا فهي مندرجة فيما سبق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته))[4].

وهذه كالأمثلة على الأعمال التي يلحق العبدَ ثوابُها وهو في قبره، وهي أعمال كثيرة متنوعة لا تكاد تدخل تحت الحصر، وهذا من فضل الله تعالى علينا.

---

(2) ((تفسير القرآن العظيم)): 6/551-553.

(3) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الوصية: باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته.

(4) أخرجه ابن ماجه في سننه في المقدمة: باب ثواب معلم الناس الخير، ونقل المحقق عن ابن المنذر أنه قال: إسناده حسن.

وقال ﷺ: ((مَن سنَّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))[1].

والحديث جاء في قصة جليلة، يحسن الإتيان بها لما فيها من المعاني المرسخة لما نحن فيه من مسألة ترك الآثار:

فعن جرير بن عبدالله البجليّ[2] رضي الله عنه

قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال فجاءه قوم حُفاة عُراة مُجْتابي النِّمار- أو العَباء[3]- متقلدي السيوف[4]، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مُضَر، فتعمّر وجه [5] رسول الله ﷺ لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلّى ثم خطب فقال: ژ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ

---

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة على ذوي الحاجة وأجر من سنّ فيها سنّة حسنة.

(2) جرير بن عبدالله بن جابر البجلي القسري، أبو عمرو اليماني، كان إسلامه رضي الله عنه في السنة التي توفي فيها النبي ﷺ، نزل الكوفة ثم انتقل إلى قيرقيسيا، وكان جميلاً جداً رضي الله عنه، وحديثه في الكتب الستة، توفي سنة 51 رضي الله عنه. انظر: ((تهذيب التهذيب)): 63/2، 64.

(3) النمّار جمع نَمِرة وهي ثياب صوف، ومجتابي النمار أي أنهم خرقوا الثياب من وسطها ولبسوها، والعباء جمع عباءة وعباية.

(4) أي يلبسون السيوف في العنق كالقلادة .

(5) أي تغير وجهه الشريفﷺ .

ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ
ﭮ ﭯ ﮊ[5]، والآية التي في الحشر:

ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﮊ[1]. تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ((ولو بشِق تمرة)) قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومَيْن من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذهبة [2]، فقال رسول الله ﷺ: ((مَن سنّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى[3]:

((وكان الفضل العظيم للبادىء بهذا الخير، والفاتح لباب هذا الإحسان))[4].

وهذا الرجل الأنصاري كان له فضل السبق في تأسيس هذا المعروف، لذلك مدحه النبي ﷺ بقوله:

---

(5) سورة النساء.

(1) سورة الحشر، الآية 18.

(2) هي الفضة إذا طُليت بذهب.

(3) يحيى بن شرف بن مُرِّي النووي ثم الدمشقي، الإمام المشهور. توفي بنوى سنة 676 رحمه الله تعالى. انظر ترجمته موسعة في ((طبقات الشافعية الكبرى)).

(4) صحيح مسلم شرح النووي: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة، وقد سبق.

((مَن سنّ في الإسلام سنّة حسنة...)) وفي هذا بيان لفضل المبادرة إلى سن الأعمال الصالحة العظيمة التي يقتدي الناس بسانِّها ومبتدئها، وهذا – ولا شك- جزء من الأثر العظيم الذي يبقى للمرء، إذ قد نصّ النبي ﷺ على أن له أجرها وأجر من عمل بها بعده، وهذا من الفضل الجليل والعمل العظيم.

وقد جاء في الحديث أن صلة الرحم لها عمل في بقاء الأثر- على أحد التفاسير للحديث- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم مَحَبةٌ في الأهل، مثراةٌ في المال، مَنْسَاة في الأثر))[1].

وقد جاء في تفسير قوله ﷺ: ((منسأة في الأثر)) عدة أقوال:

أولها: أن صلة الرحمة سبب لتأخير الأجل وزيادة العمر.

ثانيها: أن صلة الرحم باعث دوام واستمرار في النسل، والمعنى أن بركة الصلة تفضي إلى هذا.

وثالثها: أن صلة الرحم تؤدي إلى حصول البركة والتوفيق في العمل وعدم ضياع العمر فكأنه زاد.

ورابعها: أن صلة الرحم سبب لبقاء ذكره الجميل بعده، وهذا القول كأنه مترتب على القول السابق ومقتضٍ له.

---

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة: باب ماجاء في تعليم النسب، والحديث حسن. ومعنى: محبة في الأهل أي سبب للمحبة والود، ومثراة أي مكثرة، والمنسأة مأخوذة من النَساء وهو التأخير. انظر ((تحفة الأحوذي)): 113/6.

وجاء في ((فتح الباري)) [2] في بيان هذا قولُه: ((صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة، والصيانة عن المعصية، فيبقى بعده الذِكر الجميل فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي يُنتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح...))

ونقل أيضاً في الفتح أن الله يبقي أثر واصل الرحم في الدنيا طويلاً فلا يضمحلّ سريعاً كما يضمحلّ أثر قاطع الرحم[1].

وخامسها: أن صلة الرحم سبب لوجود الذرية الصالحة[2].

والقولان الثالث والرابع – وخاصة الرابع – لهما مدخل في هذا البحث الذي يدور على ترك الأثر الجميل، وعدم ضياع العمر، وما أحسن هذا العمل العظيم – صلة الرحم – الذي يؤدي إلى ترك الأثر، فهي – أي صلة الرحم – تجمع بين العبادة، والفائدة، وقضاء حق الأهل والأقارب.

كان هذا نقلاً موجزاً لشيء مما جاء في كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ عن الأعمال ذوات الآثار وأهميتها في حياة المسلمين وبعد مماتهم.

---

(2) فتح الباري: 195/22.

(1) المصدر السابق: 196.

(2) انظر هذه الأقوال في: ((تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي)): 113/6-114.

المبحث الثاني: الآثار: قدر وتفاوت

معنى الآثار:

الأثر لغة :

-جاء في (القاموس المحيط):

الأثر: بقية الشيء ، جمعه آثار وأُثُور .

وأثر فيه تأثيراً: ترك فيه أثراً

-وجاء في (المعجم الوسيط):

الأثر: العلامة وما خلّفه السابقون.

الأثر اصطلاحاً:

-ويمكن تعريف المراد بالأثر هنا على النحو التالي:

هو ما يتركه المرء خلفه من نتائج عمله صالحاً كان أو طالحاً.

وإنما قلت: نتائج عمله، ولم أقل: عمله، لأن الأثر ناتج العمل وتابع له، وليس بالضرورة أن يكون هو العمل، إذ كم من عمل انقطع أثره أو لا أثر له أصلاً، ألا ترى أن الله تعالى قال: (ونكتب ما قدموا وءاثرهم) [1] فما قدّموه هو الأعمال من خير أو شر، والآثار توابع نتائج الأعمال.

---

(1) سورة يس، الآية 12.

والآثار نتائج أعمال حسية ومعنوية:

فالحسية: هي المشاهدة المحسوسة مثل: بناء المساجد، وحفر الآبار، وتشييد الأوقاف، إلى آخر ما يمكن أن يبقى في الأرض من آثار لتلك الأعمال.

وأما **المعنوية** فهي آثار تعليم العلوم، والدعوة إلى الله تعالى، وما يمكن أن يبقى في الأرض بعد موت صاحبه أطول بكثير من بقاء آثار الأعمال المحسوسة.

والآثار من جملة الأقدار:

فالأثر الذي سيحدثه العبد في هذه الدار والذي سيتركه من بعده، هو من جملة ما قُدر عليه، وقد جاء في السنّة هذا واضحاً، فقد قال النبي ﷺ: **((يدخل الملَك على النطفة بعد أن تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يارب، أشقى أو سعيد؟ فيُكتبان. فيقول: أي ربِّ، أذكرٌ أو أنثى؟ فيُكتبان. ويُكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا يُنقص))**[1]

---

(1) صحيح مسلم: كتاب القدر: باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته.

وقد جاء في ((الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني)): 130/1 تفسير الأثر بمعنى مكان الموت والمضجع، ولا يستقيم هذا التفسير عندي، والله أعلم، مع السياق ومع نص الحديث الآخر- الآتي – الذي بيّن المراد من الآثار أنها الموطوءة أو المبلوغة، والله أعلم.

وعن أبي الدرداء[2] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((فرغ الله إلى كل عبد خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، وشقي أم سعيد)) [3].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة: اللهم متّعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي سفيان – وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: ((إنكِ سألتِ الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة لا يُعَجِّل شيئاً منها قبل حِلِّه [1]، ولا يؤخر منها شيئاً بعد حِلِّه، ولو سألتِ الله أن يعافيكِ من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لكِ...))[2].

وفي رواية: عوضاً عن ((وآثار موطوءة)): ((وآثار مبلوغة)).

فالآثار هنا سواء أكانت بمعنى الخطوات أم كانت بمعنى الأعمال المتروكة من خير أو شر لتدخل في هذا البحث دخولاً ظاهراً، والمعنى الثاني أظهر وأدل على ما يُقرر في هذا البحث من أن ترك الآثار المحمودة هو من توفيق الله تعالى للعبد وعنايته به، وهو من جملة ما قضاه الله تعالى وقدّره لعبده، ودليل سعادته، وبرهان توفيقه.

تفاوت الآثار المحمودة:

---

(2) عويمر بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري، أسلم يوم بدر. مناقبه وفضائله كثيرة جداً. مات رضي الله عنه في خلافة عثمان لسنتين بقيتا من خلافته. انظر((تهذيب التهذيب)) 8/156-157.

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وسنده حسن، انظر((الفتح الرباني)): 1/130.

(1) أي نزوله.

(2) المصدر السابق: باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص.

والآثار المحمودة متفاوتة، فمن آثار عظيمة كالجبال الرواسي إلى آثار محدودة النفع لكنها محمودة على كل حال، يذكر الناس أصحابها بخير ويدعون لهم. وبين الآثار العظيمة والآثار الصغيرة أقدار من الآثار، وفضائل ودرجات لا يعلمها إلا الله تعالى، وتتفاوت بتفاوت الآثار درجات الأخيار، وتعلو درجاتهم تبعاً لعظم آثارهم.

ولهذا لا يستصغرن المرء أثراً يتركه مهما صغر، فإنه ربما يبارك له فيه فيصير عند الله عظيماً، وربما تعظم فائدته للناس على صغره فيظلون يدعون له ويذكرونه بخير ما بقي أثره على الأرض.

أرأيت إلى رجل حفر بئراً في بقعة جافة فأحياها، وشرب منها أناس كثيرون وبهائم، وبارك الله في بئره هذه لحُسن نيّته، فبقيت مدة طويلة من الزمن، ونفع الله بها، فهذا الأثر الذي خلّفه أثر مبارك على صغره، وعمل مبرور على قلّته.

وربما عمد رجل من الناس إلى أعمال عظيمة فعملها لكن نيته فيها مدخولة مغشوشة، فصغّر الله عمله هذا وأهمل أثره فلم يعد يذكره أحد، ولا يلتفت إلى عمله هذا مُلتفت، وهو يُعَدُّ بهذا من جملة المحرومين، نسأل الله السلامة والعافية.

والموفَّق السعيد مَن هُدِي إلى عمل رشيد له أثر عظيم، وصاحَبته فيه نية حسنة، فهذا هو المسدَّد، وعمله هو الباقي في الناس، المؤسَّس على أعظم أساس.

والناظر في صفحات الآثار الخوالد، والأعمال العظيمة يدرك أنه قد صاحب أصحابَها التوفيقُ، وشملتهم العناية، وأن نياتِهم في ذلك كانت

خالصة، أو قريبة من الخلوص والنقاء، وسيأتي لذلك كله تفصيل وأمثلة إن شاء الله تعالى.

والأمر بعد ذلك بيد الله تعالى، يمنح من شاء ما شاء، ويحرم من شاء ما شاء، جلّ جلاله. فلنسأل الله تعالى التوفيق، وأن يأخذ بأيدينا لما يحبه لنا ويرضى، فإن السعيد هو من شملته العناية الإلهية، وإن المحروم من حُرِمها.

ملحظ مهم:

هنا سؤال مهم يبرز في ختام هذا السياق وهو مناسب له ألا وهو :

هل يشترط للعمل النافع والأثر الجليل أن يكون صاحبه ذا عمر طويل ممتد؟ هذا سؤال مهم والإجابة عليه أن نعم، غالباً هذا شرط في إيجاد الأثر؛ وهو أن يكون صاحب الأثر قد عاش مدة الزمان مناسبة يرعى فيها عمله، ويسقي فيها بذرته، ويتعهدها حتى تبرز وتشتد وتقوى وتستوي على سوقها، هذا في الغالب شرط، وهذا مشاهد مُسْتَقْرَأ من أحوال الناس وتاريخ المصلحين والدعاة والعاملين، ولئن قيل لي: كم تقدر الحد الأدنى من العمر المناسب للعطاء والبذل المترتب عليهما الأثر الجليل فأقول: لا بدّ أن يجاوز الأربعين قطعاً، فمن مات قبل الأربعين من عمره قَلّ أن يترك عملاً ذا أثر كبير وجليل، والحد المناسب هو أن يجتاز الخمسين، ولو عُمِّر إلى الستين أو السبعين لظهر لعمله – إن كان متميزاً – آثار جليلة، أما من يعيشون إلى المائة أو قريب منها فهؤلاء أهلٌ لترك الآثار العظيمة إن حسن عملهم وجدوا واجتهدوا.

لكن هناك استثناءات لكل ما سبق، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، سبحانه لا يُسأل عما يفعل جَلّ جلاله، فمن الاستثناءات الواضحة لمن مات قبل الأربعين وترك أثراً جليلاً:

سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام،فقد رفعه الله إليه في الثالثة والثلاثين من عمره المبارك [1] وترك أثراً ملأ الدنيا، وهو من أولي العزم من الرسل وأصغرهم صلوات ربي وسلامه عليهم.

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وقد توفي وهو في الأربعين.

سيبويه: عملاق النحو العربي، وتارك الأثر الجليل ((الكتاب)) الذي هو بمثابة دستور للنحاة واستفاد منه ملايين العلماء وطلبة العلم، مات ولم يبلغ الأربعين بل كان عمره يناهز الثالثة والثلاثين فقط رحمه الله تعالى، ويُعد إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو[1] .

أما من ترك أثراً جليلاً ومات وهو في الأربعينات من عمره فيحضرني مثالان عظيمان:

الإمام النووي، وسيأتي الحديث عنه في ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد مات وهو في الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره المبارك.

الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى، وقد مات وهو في الثالثة والأربعين من عمره المبارك، وقد غير الدنيا، وشغل الناس، وترك آثاراً جليلة في الأرض: رجالاً ومؤسسات وكتباً ومشروعات تملأ جوانب الأرض، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من شاء من عباده.

---

(1) انظر: الآثار في سنه في ((البداية والنهاية)): 95/2.

(1) انظر: ((الأعلام)): 81/5.

المبحث الثالث:

فوائد العمل لترك الآثار الجليلة

عنوان المبحث: فوائد العمل لترك الآثار الجليلة، ولم أعنون للمبحث ب: فوائد ترك الآثار الجليلة؛ لأن المرء قد يعمل طويلاً ثم لا يُكتب لعمله الأثر الجليل، وإنما يكفيه العمل ليأخذ الأجر إن شاء الله تعالى.

إن العمل لترك الأثر النافع له فوائد عظيمة: دنيوية وأخروية.

أما **الفوائد الدنيوية** فتتمثل في التالي:

سد الثغرات الكثيرة الموجودة في ديار الإسلام:

وهي التي أرهقت المسلمين وجلبت لهم الأذى والعَنَت، والذل والهوان، وهي ثغرات سياسية، واقتصادية، وإعلامية، واجتماعية، وعسكرية، وتقنية، وعلمية، إلى آخر السلسلة الطويلة من الثغرات في الجوانب المتعددة التي نعاني منها اليوم ونحن فيها عالة على غيرنا.

فكل عامل لسد تلك الثغرات – كلٌّ في تخصصه – عامل في شيء عظيم نافع، يحتاجه المسلمون، بل تشتد حاجتهم إليه.

الحفاظ على الأوقات:

إن العامل لترك الأثر بجِد واجتهاد يسخر حياته لهذا الهدف، وأوقاته تكون معمورة بالعمل الصالح، فيتجنب سفساف الأمور ودناياها، ويرتقي إلى المعالي والكمالات، فيكون بعيداً عن المؤثرات الدنيوية التافهة التي ملأت حياة الناس ضعفاً، وإخلاداً إلى الأرض، وهذا في حد ذاته – ولو لم يصل

المرء به إلى تحقيق أثر عظيم – هو مكسب كبير للشخص وحافظ له وأي حافظ.

3-الترقي إلى الكمال:

إن العامل لترك الأثر العظيم بحاجة إلى استدراك جملة من الأمور في نفسه، فتجده دائم الرغبة في تغيير صفاته وأحواله إلى الأفضل والأحسن، عاملاً على استكمال جوانب الشخصية الإسلامية الجيدة، معالجاً لجوانب النقص في نفسه، لائماً لها على التقصير والإهمال، فربما التحق بالدورات المتعددة، وربما قرأ الأبحاث المتخصصة في هذا الجانب، وربما عَرّج على أصحاب الكمالات ينهل من معينهم، فالعامل إذاً لترك الأثر هو مصلِح لنفسه من حيث يشعر أو لا يشعر، وإصلاح النفوس مقصد مهم من مقاصد الشريعة.

4-القدوة الحسنة:

إن العامل لترك الأثر العظيم إنما هو قدوة مهمة للعاملين الذين قد تتناوشهم المطالب التافهة، وقد يعرضون عن مواصلة العمل، فإذا رأوا العامل لترك الأثر ولحظوا جدَّه واجتهادَه رجعت إليهم نفوسهم وتجدد لهم نشاطهم، وما أحوج العاملين اليوم إلى قدوات قوية في عصر انتكس فيه الكثير، وضعفت فيه همم الكثير، وتخلّى فيه كثير من الدعاة والصالحين عن أهدافهم العليا إلى أمور دنيا، ولذلك كنا نحن مأمورين بالاقتداء بالنبي الأعظم ﷺ لأنه معصوم في هذا الباب لا يمكن أن يتطرق إليه ضعف، لكن النفوس جُبلت على اتباع من يعيش بينها، ويرون عمله وجِده واجتهاده.

5-استيعاب جهود الدعاة:

إن العامل لترك الأثر العظيم يولد سلسلة من الأعمال المهمة؛ إذ قد ينشيء مؤسسات وهيئات تستوعب أعدداً ضخمة من الدعاة والصالحين الذين لا تستوعبهم جماعاتهم، ولا يجدون فرصاً للعمل الدعوي المنتج الجيد، فيأتي صاحب المشروع العظيم، الراغب في ترك الأثر الجليل ليحرك معه مئات وربما آلافاً من الدعاة الذين قعدت بهم هممهم أو مواهبهم عن العمل الدعوي، وفي هذا مكسب كبير؛ إذ أن مشكلة عدم استيعاب الطاقات المختلفة من أكبر المشكلات التي تهدد الدعاة اليوم.

وقد لا يولد صاحب الأثر الجليل الأعمال المهمة لكنه يولد الأفكار الكثيرة المساعدة على قيام الأعمال المهمة، وهذا مكسب كبير.

6-إحياء الأمل وتجديد الثقة بانتصار الإسلام:

إن العامل لترك الأثر العظيم يحيي الأمل في نفوس الكثيرين بعودة المسلمين إلى مجدهم، ويعظم اليقين والثقة في نفوسهم بانتصار المسلمين، وهذا لأن أكثر المسلمين بحاجة إلى أعمال عظيمة محسوسة يستندون إليها في بناء يقينهم وثقتهم وأملهم في عودتهم إلى الريادة والسيادة من جديد، فيأتي صاحب العمل العظيم ليحيي في نفوسهم هذه المعاني ويثبتهم، وهذا مطلب عظيم مهم.

مَن منا لم تحيا نفسه بالأمل واليقين لما رأى مشروع الشيخ أحمد ياسين وقد ملأ الدنيا وشغل الناس.

ومَن لا تحيا نفسه عندما يرى عمل د. عبدالرحمن السميط في أفريقيا، وجهده المتواصل في ضد الفاتيكان وحزبه.

وقد أتيت على ذكر الرجلين وعملهما في ثنايا هذه الرسالة لكني إنما أذكرهما هنا لمناسبتهما للموضوع.

7-تيئيس الكافرين من الانتصار على هذا الدين:

إن العامل لترك الأثر العظيم يُحدث في نفوس الكافرين قنوطاً من الانتصار على هذا الدين وأهله، ويكبتهم ويغيظهم، وربما أخافهم وغيّر مشروعاتهم ضد المسلمين، وفي هذا من الخير العظيم ما فيه.

8-هداية من جنح من المسلمين:

إن العامل لترك الأثر العظيم قد يهدي به الله كثيراً من ضُلاَّل المسلمين الذين لا يجدون في هذا الدين إلا معاني العبادة الصرفة من صلاة وصيام، وهم يريدون تحقيق المجد في هذه الدار والانتصار على أعدائهم، لكنهم ضلُّوا الوسيلة الصحيحة، وتخبّطوا طويلاً، فإذا رأوا صاحب المشروع العظيم وأثره في دنيا الناس رجعوا إلى أنفسهم وأصلحوا مسيرتهم، ومثال على هذا: انفضاض كثير من الناس عن القومية واليسار والبعث لما رأوا مشروع الشيخ أحمد ياسين في فلسطين ونجاحاته المتواصلة، ووقوفه سداً منيعاً أمام إخوان القردة ونصرائهم في الغرب والشرق.

فهذه بعض الفوائد المتحققة في دنيا الناس من جراء العمل الجاد المتواصل لترك الأثر النافع.

الفائدة الأخروية:

وأما فائدته الأخروية فهي شيء عظيم، وبيان ذلك أن الدرجات العاليات في الجنة إنما هي لمن أنعم الله عليه من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وقد سبقنا من هؤلاء العظماء المذكورين جملة هائلة من البشر

يُعدُّون بمئات الملايين منذ آدم عليه الصلاة والسلام إلى الآن؛ إذ كم في الأمم قبلنا من رُسل وأنبياء، وكم لهم من أصحاب وأتباع، وكم جرى في الأرض من ملايين المعارك جرى فيها دم عشرات الملايين من الشهداء، وكم في الأمم قبلنا من صالحين لا يعدُّون ولا يحصون، ثم كم في أمتنا المحمدية الإسلامية من الشهداء والصالحين والأولياء والدعاة ممن لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولأقرِّب للقراء ذلك فإني سأذكر جملة من الآيات والأحاديث التي تتناول الأمم السابقة، ثم أذكر ما يخص أمتنا الإسلامية.

ﮋ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮊ [1].

ﮋ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮊ [2].

ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶﮊ[3].

ﮋ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮊ [4] وكم هنا للتكثير، والله تعالى هنا – يقص خبر المؤمنين مع طالوت، وهذا منذ عهد بعيد.

ﮋ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔﮊ [5] وفي قراءة عشرية صحيحة ﮋﮰ ﮱ ﯓ ﯔﮊ [6].

---

(1) سورة الفرقان.

(2) سورة إبراهيم، الآية 9.

(3) سورة النساء، الآية 164.

(4) سورة البقرة، الآية 249.

(5) سورة آل عمران، الآية 146.

وقال تعالى مبيِّناً حال أهل الدرجات العلى:

ﮋﮕ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﮊ[7].

وهناك تفسيران لهؤلاء الآخرين الذين منهم قليلٌ قد حاز الدرجات العلى،

فقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: ((قيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير...[1]

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابَل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم – والله

أعلم – فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: (ثلة من الأولين) أي: من هذه الأمة... ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم، كل أمة بحسبها... والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظم نبيها...))[2].

---

(7) سورة الواقعة، الآيات 10-14.

(1) هو الشيخ الإمام محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد. ولد سنة 224 بآمُل طبرستان. كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف، وكان من كبار أئمة الاجتهاد. استقر ببغداد وتوفي بها سنة 310 رحمه الله تعالى. انظر ((سير أعلام النبلاء)): 14/267-282.

(2) ((تفسير القرآن العظيم)): 7/490-493.

وعلى هذا فالسابقون في هذه الأمة هم المقربون أهل الدرجات العلى من الأولين أهل الصدر الأول، ويلحقهم قليل من الآخرين، أي: ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، وهذه الآية خطيرة شديدة على المتأخرين؛ إذ تبين أن عامتهم سيكونون من أهل اليمين، وأن قليلاً منهم فقط هم الذين سيلحقون بأهل الدرجات العُلى والمقرّبين في أعلى جنات النعيم، فمَن منا اليوم سيكون مندرجاً مع الزمرة الأولى، والأوائل المقربين؟

ولمزيد من التوضيح لهذه القضية المهمة الجليلة فإني أقول:

أمتنا اليوم ألفٌ وثلاثمائة مليون، ونسبة تكاثر الأمة الإسلامية هي الأعلى في الأرض اليوم-فيما أعلم- فكم يبلغ عدد المسلمين من الصدر الأول إلى اليوم؟ إنهم آلاف البلايين الذين لا يحصيهم إلا الله، وكم فيهم من شهيد وولي وصالح وعامل؟ إنها أعداد ضخمة جداً ولا شك؛ إذ حسبك أن تتحدث عن أمة أرضها من الصين إلى المغرب، ومن تركيا إلى جنوب إفريقيا.

كل هذا الذي سبق بيانه إنما أُريد منه ضخامة عدد الصالحين والعاملين ممن قضى نحبه قبلنا، وإنهم يقدّرون – والله أعلم – بمئات الملايين، فأين يكون موقع مَن يريد أن يزاحمهم على الدرجات العاليات؟ وهل يستطيع؟

ويقول النبيﷺ مبيِّناً عِظَم الجنة ودرجاتها:((إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض))[1].

---

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة: باب ماجاء في قول المعروف، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده بطرق يقوي بعضها بعضاً، فالحديث حسن إن شاء الله تعالى. انظر ((مجمع الزوائد)): 10/422-423.

والذي بين السماء والأرض أمر مهول لا يعلمه إلا الله، حار فيه أهل الفلك، وضعفت قواهم عن متابعته، والأرقام التي تعبر عن المسافات بين الكواكب والمجرّات – ولا أقول بين السماء والأرض، إذ ذلك أمر لا سبيل للإحاطة به – أرقام لا يمكن قراءة أصفارها ولا التعبير عن أعدادها.

ويحثنا ﷺ أن نسأل الله الفردوس الأعلى من الجنة: ((فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة)) [(2)].

وقال ﷺ:

((أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر.. والذين على أثرهم كأشد كوكب إضاءة))[(1)].

وقال ﷺ:

((إن أهل الجنة تراؤون أهل الغرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في أفق السماء من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم)).

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

قال: ((بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[(2)].

---

(2) المصدر السابق.

(1) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

(2) المصدر السابق.

وقال ﷺ واصفاً تفاوت المراتب في الجنة: ((جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...))[3].

وقد كان الصحابة يعرفون اختلاف الدرجات، لذلك قالت عائشة رضي الله عنهما:

((جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﮋﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮊ))[1].

ولذلك كله كان الصحابي ربيعه بن كعب الأسلمي [2] رضي الله عنه موفَّقاً كل التوفيق عندما قال له النبي ﷺ: ((سَلْ)).

فقال: أسألك مرافقتك في الجنة.

فقال ﷺ: ((أوْ غير ذلك؟)).

فقال: هو ذاك.

فقال ﷺ: ((فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود))[3].

---

(3) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله تعالى **(ومن دونهما جنتان).**

(1) سورة النساء.

(2) ربيعة بن كعب بن مالك الأسلميّ، أبو فراس المدني. كان من أهل الصُفة، خدم النبي ﷺ وروى عنه، ليس له في الكتب إلا هذا الحديث، مات سنة 63 رضي الله عنه. انظر ((تهذيب التهذيب)): 226/3-227.

فهذا – وهو صحابي – لم يضمن له النبي ﷺ مرافقته في الجنة إلا إن عمل عملاً كبيراً يستحق به ذلك، وكان هذا العمل هو كثرة الصلاة.

إذاً: كيف سيحصل عمال اليوم على الدرجات العاليات وقد سبقهم مئات الملايين من العاملين المجتهدين؟ وحال من سبقنا – في الجملة – أفضل من حالنا، كيف لا وفيهم الصحابة والتابعون والسلف المبارك والخلف المتابع العامل.

الطريق لهذا هو: أن يعمل مريد الدرجات العاليات عملاً عظيماً في دنيا الناس بحيث يترك الأثر الجليل، وهناك أمر مطرد وقاعدة جليلة أنشأتها استنباطاً مما سبق:

(كل مَن يريد منزلة أعظم من منزلة أقرانه في الآخرة عليه أن يعمل عملاً أعظم من عملهم في الدنيا).

هذه القاعدة جليلة، إن فُهِمَت على وجهها ثم طُبِّقت تطبيقاً حسناً عادت على الآخذ بها بأحسن العوائد، وأعظم الثمار، وهي متوافقة مع جملة من الآيات جاءت في معناها:

قال تعالى:

ژ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ژ ژ [1].

ژ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ژ [2].

---

(3) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة: باب فضل السجود والحث عليه.

(1) سورة الزلزلة.

ژ ۋ ۋ ۉ ۉ ۈ ۈ ې ې ېې ۅ ۀ ئا ئا ئە ژ [3].

ژ ڃ ڌ ڌ ڃ ڃڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ژ [4].

ژ ڤ ڤ ڦ ڦ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڌ ڌ ڃ ڃڃ
ڃ ڃ ڃ ژ [5].

كل هذه الآيات – وأمثالها كثير – توضح بجلاء أن الإنسان يرتقي الدرجات العاليات بعمله وكسبه، مقروناً بفضل الله تعالى عليه، أما دخول الجنة فمحض فضل من الله تعالى.

قال النبي ﷺ: ((لن يُنْجيَ أحداً منكم عمله)).

قال رجل: ولا إياك يارسول الله؟

فقال ﷺ: ((ولا إياي إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل))[1].

وفي رواية: ((لا يُدخِل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله))[2].

---

(2) سورة الأنبياء.

(3) يس.

(4) سورة النساء، الآية 40.

(5) سورة الأنبياء.

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين: باب **((لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى)).**

ومعنى يتغمدني الله برحمة أي يلبسنيها وسترني بها، وذلك مأخوذ من غِمْد السيف، لأنك إذا أغمدته فقد ألبسته الغمد وغشّيته به. انظر ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)): 353/8.

إذاً: دخول الجنة محض فضل، والدرجات العاليات فضل وعدل.

فإذا عُلم هذا فلا بد لطالب الدرجات العلى في زماننا هذا من تشمير، وعمل متواصل ينال به تلك الدرجات، وهذا العمل الكثير والتشمير سينشأ عنه.

إذاً: فائدة ترك الأثر الأخروية إنما هي تحصيل الدرجات العاليات، والفوز بالفردوس الأعلى من الجنة، واللحاق بركب العاملين العظماء من الصدر الأول فمَن بعدهم.

---

(2) المصدر السابق.

المبحث الرابع:

كيفية ترك الآثار المحمودة الجليلة

وهو لب البحث، وخلاصة الأمر، ويقوم على أركان أربعة عظيمة لا بد لكل مَن أراد أن يترك أثراً عظيماً أن يقيمها في نفسه، ويتحقق بها، لعل الله أن يرزقه ترك الأثر الحسن والعمل النافع، وهذه الأركان هي:

حُسن الصلة بالله تعالى.

الصفات النفسية الجيدة.

الهدف العظيم.

العلم الواسع والثقافة المناسبة.

وهذه الأركان هي كأركان البنيان، إن اختلّ منها ركن تهدّم وتقوّض. والملاحظ أن الركن الأول هو حجر الزاوية في كل عمل. والركن الثاني أمر لا بد منه لكل طالب أمراً عظيماً. والركن الثالث هو الضامن للمرء ألا يضيع عمره ويتفرق جهده في الصغائر والمرجوحات. والركن الرابع تتفاوت فيه الهمم والأقدار، وسيأتي في المبحث الخامس – إن شاء الله تعالى – تفصيلٌ لحال هذه الأركان الأربعة إن ضعفت أو اضمحلت، لكن سآتي الآن على تفصيل شأن هذه الأركان وتقريرها.

***

الركن الأول: حُسن الصلة بالله تعالى

وهو الأمر العظيم، والشيء الجليل، الذي إن تحقق للعبد فاز فوزاً عظيماً، وشملته العناية، وسهل أمره، وتذللت الصعاب بين يديه، وقفز الحواجز، وتخطى العقبات. والناس في ذلك متفاوتون تفاوتاً عظيماً، لكن لابد لمريد العظائم أن يفهم أنه لا بد أن يلتزم طرق الباب، والتذلل والانكسار على الأعتاب، وأن ذلك ديدن الرسل العظام والأنبياء الكرام، ويُفهم هذا المعنى تمام الفهم في ضوء حديث عظيم جداً، وجليل مؤثِّر، فعن هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

((إن الله تعالى قال:

مَن عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...))(1).

الله أكبر، إن هذا الحديث عظيم جليل، يبيِّن تمام التبيين ما نحن بصدده، فالذي يتقرّب إلى الله تعالى ويُحسن صلته به، ويديم التقرُّب – كما يدل عليه الفعل المضارع: **((وما يزال عبدي يتقرب إليّ))** – سيدخل ساحة الحبة الإلهية، فإذا ولجها فلا تسل عن الكرم الإلهي الذي سيناله، ولا عن العناية التي ستشمله: **((كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))** فهذه معية رائعة جليلة، ومنّة عظمى كبيرة أن يكون الله تعالى مع عبده على هذا الوجه، فيحوطه في سمعه وبصره وجوارحه، فلا

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق: باب التواضع.

يعود يسمع إلا الشيء الحسن، ولا يقصد ببصره إلا الحسن، ولا يفعل بجوارحه إلا الأمور الحسنة، وهل هو هذا فقط؟ لا بل هناك أمر أعظم وأجَل وأعلى **((وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))** فأي مطلب مهما عظم فهو مجاب، وأي مخاوف يخافها فهي أمان.

إذاً: على طالب الأثر العظيم أن يُحسن صلته بالله تعالى فإنه سيجيبه إلى سؤله، وينيله مطلوبه ومراده مهما رآه عظيماً، أو بعيد المنال، أو صعب القِطاف.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في قوله ﷺ: ((كنت سمعه...)) عدة أقوال منها:

أن العبد يصير مشغولاً بكليته بالله تعالى فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيه، ولا يرى ببصره إلا ما يأمره به.

إن الله تعالى يكون له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورِجله في المعاونة على عدوه.

إن العبد لا يعود يسمع إلا ذكر الله تعالى، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوته، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاه تعالى ورجله كذلك.

ثم ذكر ابن حجر عن أحد العلماء أنه: قد اتفق العلماء ممن يُعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته حتى كأنه سبحانه يُنزِل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها.

توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، ويحفظ عليه جوارحه ويعصمه عن مواقعة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء بسمعه إلى

اللهو، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله.

ولعل هذا القول الرابع هو أقرب الأقوال، وإن كانت الأقوال الباقية متقاربة.

ثم قال: المراد بالنوافل جميع ما يندب إليه من الأقوال والأفعال[1].

والنوافل في الإسلام أمر عظيم، واسع شامل يشمل حركات العبد وسكناته. إذا كانت بنية صالحة وكانت مباحة على الأقل، فالله تعالى حينئذ من كرمه وفضله يقلبها عبادات وتصير له حسنات.

وكبار المؤثرين على مدار التاريخ كانوا حسني الصلة بالله، على تفاوت أقدارهم في هذا، والأمثلة أكثر من أن تُحصر، لكن حسبي أن أعرج على شيء منها ليعظم هذا الكتاب بذكر أولئك الأطهار، ولنعلم عظم قدر الصلة الحسنة بالله تعالى وما تعود على العبد من فوائد:

إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم:

كان ﷺ على درجة عظيمة من التقرُّب وحُسن الصلة بالله تعالى. قال جلّ من قائل: ﮋ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮊ[2]، (ﮋ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮊ[3].

والأوّاه: المتضرّع الدَّعَّاء.

---

(1) ((فتح الباري)): 24/139-141.

(2) سورة التوبة، الآية 114.

(3) سورة هود.

وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كثير الدعاء [1]، وكثرة الدعاء

والتضرع فيه والإخبات دلالة على حسن الصلة بالله تعالى.

وقال تعالى: ژ ٿ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ژ [2].

والقانت: هو الخاشع المطيع[3].

ولله كم كان الخليل مطيعاً باذلاً، مضحِّياً بكل ما عنده في سبيل إرضاء الله تعالى.

نبينا الأعظم محمدﷺ:

وشرح عظم صلته بالله تعالى يحتاج إلى كراريس، لكن حسبنا أمثلة تناسب إيجاز هذه الرسالة:

كان ﷺ إذا صلّى يُسمع له أزيز كأزيز المِرْجل.

والأزيز: الصوت، والمِرْجل: القدر، أي أنه ﷺ كان إذا صلّى خشع حتى صار لجوفه صوت كغليان القدر إذا اشتد[4] .

وفي رواية: كأزيز الرَّحَى[5].

---

(1) ((تفسير القران العظيم)): 162/4.

(2) سورة النحل، الآية 120.

(3) المصدر السابق: 530.

(4) أخرجه النسائي في سننه.

وقد قال علي رضي الله عنه: ((ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح ﷺ))[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح استشرفهُ الناس، فوضع رأسه على رحله متخشعاً))[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح حتى وقف بذي طوى وتوسّط الناس، وإن عُثْنونه [3] ليمس وسط رحله أو يقرب منها تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: **((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))** [4])) ولكم أن تتخيلوا معاشر القراء رسول الله ﷺ يدخل مكة فاتحاً ووجهه الشريف يمس ظهر دابته كهيئة الساجد الشاكر، هذه صورة عجيبة حقاً على حسن الصلة بالله تعالى.

وحياته ﷺ مثال حي تطبيقي على حُسن الصلة بالله تعالى في جميع الجوانب والشؤون.

---

(5) أخرجه أبو داود في سننه.

(1) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه.

(2) رواه أبو يعلى والحاكم بسند قوي.

(3) العثنون ما تحت الشفة السفلى من الشعر.

(4) رواها الواقدي في السيرة، وكل الآثار السابقة الأربعة نقلتها من كتاب ((سيدنا محمد رسول الله)): 309-310.

أمثلة متفرقة:

ولم يحظَ أمة من الأمم بعشر معشار ما حظيت به أمتنا من العظماء والفضلاء، الذين حسنت صلتهم بالله تعالى فحسنت أعمالهم، وإليكم أمثلة يسيرة من البحر الخضم انتقيتها من سِيَر لا يعرفها أكثر القراء لكن كان لهم أعمال وآثار رضي الله عنهم:

فهذا الإمام العلامة، شيخ الإسلام، الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد القرشي التميميّ ثم الأصبهاني الملقّب بقِوام السُنّة، المتوفي سنة 535، حكى عنه أحد أصحابه أنه لا يعلم أن أحداً عاب عليه قولاً ولا فعلاً، ولا عانده أحد إلا ونصره الله، وكان نَزِهَ النفس عن المطامع، لا يدخل على السلاطين ولا على من اتصل بهم، وكان له تعبُّد وأوراد وتهجُّد، ولما مات ولده وجلس للتعزية جدّد الوضوء في ذلك اليوم نحو ثلاثين مرة، يصلي عقب كل وضوء ركعتين[1].

وهذا الشيخ الإمام، العالم الفقيه المحدث، شيخ الإسلام، فخر العراق عبدالوهاب بن علي – المعروف بابن سُكينة – البغدادي الشافعي، المتوفى سنة 607، حكى عنه أحد تلامذته[2] قائلاً:

شيخنا ابن سُكينة شيخ العراق في الحديث والزهد وحُسن السمت وموافقة السُنّة والسلف، عُمِّر حتى حدّث بجميع مروياته، وقصده الطلاب من البلاد، وكانت أوقاته محفوظة، لا تمضي له ساعة إلا في تلاوة أو ذكر أو تهجُّد أو تسميع، وكان كثير الحج والمجاورة والطهارة، يديم الصوم غالباً،

---

(1) ((نزهة الفضلاء)): 1404/3.

(2) وهو العالم الكبير ابن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد.

ويستعمل السنّة في أموره، ويحب الصالحين، ويعظِّم العلماء، ويتواضع للناس، ظاهر الخشوع، غزير الدمعة، وكان الله قد ألبسه رداءً جميلاً من البهاء، وحُسن الخِلقة، وقبول الصورة، ونور الطاعة، وجلالة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمة، ومن رآه انتفع برؤيته، فإذا تلكم كان عليه البهاء والنور، لا يُشبع من مجالسته. لقد طفت شرقاً وغرباً ورأيت الأئمة والزهاد، فما رأيت أكمل منه ولا أكثر عبادة ولا أحسن سَمْتاً[3].

وهذا الشيخ الإمام العالم، الزاهد القدوة، عماد الدين إبراهيم بن عبدالواحد بن علي المقدسي الجُمّاعيلي، المتوفى سنة 614، كان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء يقرئ القرآن والعلم، لا يخرج إلا لحاجة، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة، وكان من خيار الناس ومن أعظم نفعاً، وأشدهم ورعاً، ومن أكثرهم صبراً على التعليم، وكان داعية إلى السُنّة، أقام بدمشق مدة يعلّم الفقراء ويقرئهم، ويطعمهم ويتواضع لهم، وكان من أكثر الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه وخوفاً من الله تعالى، كثير الدعاء والسؤال لله تعالى، يطيل السجود والركوع بخشوع وخضوع، يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان إذا دعا تشهد القلوب بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه[1].

والسؤال المهم الكبير: هؤلاء الأئمة العظماء أصحاب الأعمال العظيمة والآثار الجليلة مَن يعرفهم منا؟ ومَن اطلع على سيرهم الرائعة وأخبارهم الجليلة؟

---

(3) ((نزهة الفضلاء)): 1526/3.

(1) المصدر السابق 1532/3-1533.

إن الجواب يورثني حسرة كبيرة. وإنا لله وإنا إليه راجعون على قلّة عنايتنا بأخبار ساداتنا.

***

الركن الثاني: الصفات النفسية الجيدة

وهي مجموعة صفات لا بد من توافرها كلها أو أغلبها ليعظم العمل والأثر، فمن ذلك:

الهمّة العالية:

وهي على رأس تلك الصفات المهمة، لأن مَن علت به همته عظم عمله، وحسن أثره، وارتفع قدره، ومَن سلفت به همته نقصت منزلته، وضعف عمله وأثره، مهما كان له من مواهب وملكات، ومهما حاز من قدرات، وكم رأينا من أشخاص أصحاب قدرات متوسطة، وملكات ومواهب ليست متميزة، لكنهم بهمتهم العالية تجاوز نقصهم، وأصبح لهم آثار نافعة وأعمال جليلة.

والأنبياء والرسل كله أصحاب همّة عالية وعمل دؤوب، وكل مَن اقتفى أثرهم راغباً اللحاق بهم كان من أهل الهمم العالية، وإليكم مثالاً ربما خفي على كثير من القراء، اخترته من البحر الخضم الهائل من سير أهل الهمّة رضي الله عنهم، ألا وهو بَقِيٌّ بن مَخْلَد الإمام الكبير المتوفى سنة 206 الذي كان أول من نشر الحديث بالأندلس نشراً واسعاً، وكان إماماً مجتهداً صالحاً، ربانياً صادقاً مخلصاً، في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، كان يصلي بالنهار مائة ركعة، كثير الجهاد، رابط اثنتين وسبعين غزوة، كان قد قسم أيامه على أعمال البر، فكان إذا صلّى الصبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف، يُدرّس القرآن، ويخرج كل ليلة إلى مسجده في الثلث الأخير

فيصلي صلاة طويلة جداً، ثم ينقلب إلى دراه فيجدد الوضوء، ثم يخرج إلى مسجده وقد اجتمع فيه الطلبة فيُقرئهم، فإذا فرغ صلّى إلى الظهر، ثم يؤذِّن، فإذا فرغ من الصلاة أقرأ الطلاب إلى العصر، وكان يصوم الدهر إلا الجمعة، ثم يصلي ويقرئ الطلبة، وربما خرج آخر النهار إلى القبور فيقعد بينها يبكي ويعتبر، فإذا غربت الشمس أتى مسجده فصلّى، ثم يرجع إلى بيته فيفطر، ثم يتحدث مع جيرانه في أمور دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشاء، ويدخل إلى أهله فيحدثهم، ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه، ثم يقوم، وكان هذا دأبه إلى أن مات.

وكان جَلْداً قوياً على المشي، مشى مع ضعيف في مظلمة إلى إشبيلية – وكان يسكن قرطبة – ومشى مع آخر إلى إلبيرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جَيّان[1].

الله أكبر، هؤلاء هم أهل الهمّة رضي الله عنهم، ما أبعادنا عن حالهم وهممهم، ثم نرجو أن نصنع للإسلام والمسلمين ما صنعوا، وأن نترك من الآثار ما تركوا !! ولو سألنا أهل العصر عن بَقِيّ بن مَخْلد فكم من الناس يعرفه؟ بل كم من طلاب العلم والدعاة والفضلاء يعرف هذا الإمام العظيم؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.

وإليكم معشر القرآء الكرام بعض الأمثلة على أصحاب الهمم العالية الذين تركوا الآثار الجليلة:

هذا الإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القسام [1] هذه الحادثة: ((كنت آتي مالكاً غلساً [2] فسأله عن

---

(1) ((نزهة الفضلاء)): 975/2.

مسألتين، ثلاثة، أربعة وكنت أجد منه انشراح الصدر، فكنت آتي كلّ سحر، فتوسدت مرة في عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني سوداء له برجلها وقالت لي: إن مولاك لا يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلّى الصبح إلا بوضوء العَتَمَة[(3)]، ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه))[(4)].

وكان الإمام ابن عقيل الحنبليّ[(5)] يقول:

((أني لا يحل لي أن أضّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح))[(1)].

---

(1) عالم الديار المصرية ومفتيها، أبو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم العُتَقيّ بالولاء، المصريّ، صاحب الإمام مالك. كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، وله قدم في الورع والتألُّه، ولد سنة 132 وتوفي سنة 191 رحمه الله تعالى. انظر ((أعلام النبلاء)): 9/120-125.

(2) انظر إلى هذه الهمة العالية إذ يأتيه قبل الفجر، وفي أيامنا قلّ من يجلس مستيقظاً بعد صلاة الفجر إلى أن يصلي ركعتين بعد ارتفاع الشمس قدر رمح، وإذا طلب من أحد الدرس بعد الفجر يعتذر بأنه موعد غير مناسب، وهذا حتى في أيام الإجازات التي ليس فيها عمل صباحيّ مبكر يحتاج إلى راحة.

(3) أي العشاء.

(4) ((ترتيب المدارك)): 3/250.

(5) الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغداديّ الحنبليّ المتكلم، صاحب التصانيف. ولد سنة 431، وخالط المعتزلة فانحرف عن السنّة، وكان يتوقد ذكاء، بحرُ معارف، وكان كريماً، توفي سنة 503 وكان الناس في جنازته يفوقون الحصر. انظر ((سير أعلام النبلاء)): 19/443-451.

(1) ((الوقت هو الحياة)): 178.

ووصف الإمام النوويّ[2] حياته لتلميذه أبي الحسن ابن العطار[3] فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً: درسين في ((الوسيط))، ودرساً في ((المهذب)) [4]، ودرساً في ((صحيح مسلم))، ودرساً في ((اللُمَع)) [5] لابن جنّي [6]، ودرساً في أصول الفقه، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين، قال: وكنت أعلّق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى في وقتي))[7].

وقال أبو الحسن العطّار:

((ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيع له وقتاً لا في ليل ولا نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.

---

(2) يحيى بن شرف بن مُرِّي، الإمام المشهور، توفي سنة 676 عن 45 سنة. انظر ترجمته في ((فوات الوفيات)): 4/264-268.

(3) علي بن إبراهيم بن داود، أبو الحسن، من أهل دمشق، ولد سنة 654، وكان وأبوه عطاراً وحده طبيباً، ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية 30 سنة، توفي سنة 654، وكان أبوه عطاراً وجده طبيباً، ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية 30 سنة، توفي سنة 724 رحمه الله تعالى. انظر ((الأعلام)): 4/251.

(4) كتاب في الفقه الشافعيّ لأبي إسحاق الشيرازيّ، شرحه الإمام النوويّ في كتابه ((المجموع)).

(5) كتاب في النحو.

(6) إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصليّ، صاحب التصانيف، له نظم جيد، توفي سنة 392 عن قرابة 63 سنة رحمه الله تعالى. انظر ((سير أعلام النبلاء)): 17/17-19.

(7) ((تذكرة الحفاظ)): 4/147.

قلت[1]: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها))[2].

وقال علي بن الحسن بن شقيق المروزي: ((قمت لأخرج مع ابن المبارك[3] في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرته فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذّن للصبح))[4].

وقال محمد بن علي السلميّ[5]:

((قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة على ابن الأَخرم [6]، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، ولم تدركني النوبة إلى العصر))[7].

وهذا الخبر كلما قرأته تعجبت من همّة أولئك الأطهار، جعلنا الله منهم.

---

(1) أي الذهبي.

(2) ((تذكرة الحفاظ)): 147/4.

(3) عبدالله بن المبارك المروزيّ الحنظليّ – بالولاء – ثقة ثبت، فقيه عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير. توفي سنة 181 وله ثلاث وستون سنة. انظر ((التقريب))320.

(4) ((نزهة الفضلاء)): 657/2.

(5) لم أقف له ترجمة.

(6) مقرئ دمشق، العلامة أبو الحسن محمد بن النضر بن مُرّ الربَعيّ الدمشقيّ، ابن الأَخْرَم، كان يحفظ كثيراً من التفسير ومعانيه، وكانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، توفي رحمه الله تعالى سنة 341 وعاش 81 سنة. انظر ((سير أعلام النبلاء)): 564/15-566.

(7) المرجع السابق: 1245/2.

وأما الإمام أبو القاسم بن عساكر [8] فقد قال عنه أبو المواهب بن صَصْري[9]:

((لم أرَ مثله، ولا مَن اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عُرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم))[1].

وهذا الشيخ كمال العباسيّ الكجراتيّ الهنديّ [2]، كان ((من عوائده أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقي ثلثه فيغتسل ويتهجد، ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق، ثم يصلي ويجلس للدرس

---

(8) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ، ولد سنة 499، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ، وكان ديناً، صنف التصانيف المفيدة أجلّها ((تاريخ دمشق))، توفي رحمه الله تعالى سنة 571 بدمشق. انظر ((وفيات الأعيان)): 3/309-311.

(9) الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصري الربعيّ التغلبيّ الدمشقيّ، أبو المواهب، من حفاظ الحديث، وكان محدث دمشق، له بعض المصنفات، توفي سنة 586 عن قرابة 50 سنة رحمه الله تعالى. انظر ((الأعلام)): 2/225.

(1) تذكرة الحفاظ: 4/1332.

(2) الشيخ العالم الكبير المفتي كمال محمد العباس الكجراتيّ الهنديّ، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، ولد ونشأ بأحمد آباد، واشتغل بالعلم من صباه حتى برع وفاق أقرانه، وولي الإفتاء فاشتغل بالفتيا والتدريس 30 سنة، توفي سنة 1013. انظر ((الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)): 5/342-343.

والإفادة فيدرس إلى زوال الشمس، ثم يتغدّى ومعه جماعة من المحصلين عليه، ثم يقيل ساعة، ثم يصلي الظهر، صم يجلس للإفتاء فيشتغل به إلى العصر، ثم يصلي، ثم يشتغل به (3)، ثم يصلي ويُقبل على أصحابه، فيتحدث معهم إلى العشاء، ثم يدخل في حجرته ويشتغل بمطالعة كتبه التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل في المنزل، وكان من الخامس عشرة من سنة إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق))(4).

وقال أبو العباس ثعلب(5):

((ما فقدت إبراهيم الحربيّ (1) من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة))(2).

الثبات:

وهو رأس الأمر، وعمود عمل كل راغب بترك الأثر، إذا لا يمكن هذا إلا بثبات راسخ شامخ.

---

(3) أي بالإفتاء.

(4) ((الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)): 242/5-343.

(5) العلامة المحدِّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيبانيّ بالولاء، البغداديّ، صاحب التصانيف، ولد سنة 200، وكان ثقة حجة، ديناً صالحاً، مشهوراً بالحفظ، عُمِّر وأصم، وصدمته دابة فوقع في حفرة، ومات فيها سنة 291 رحمه الله تعالى. انظر ((سير أعلام النبلاء)): 5/14-7.

(1) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغداديّ الحربيّ، صاحب التصانيف. ولد سنة 198، كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حفاظاً للحديث، مميزاً للعلة، صنّف كتاباً كثيرة، توفي سنة 258 رحمه الله تعالى. انظر: ((سير أعلام النبلاء)): 356/3-372.

(2) نزهة الفضلاء: 982/2.

لكـلِّ إلى شَـأْ العُلـى حـركاتُ ولكـن قليـلٌ فـي الرجال ثباتُ

وعلة أكثر العاملين اليوم قلة الثبات، والتذبذب والتردد والانسلاخ والانتكاس، وهذا يضعف العمل، بل ربما يُذهبه ويذهب أثره في الناس، بينما صاحب الثبات ولو قلّ عمله لا بد أن يظل له أثر في دنيا الناس.

ومريد ترك الأثر العظيم النافع لا بد أن يعلم أن الثبات عدة له عظيمة، لأن المصاعب التي ستعترضه شديدة، والحواجز والعقبات كثيرة، فما لم يوطن نفسه على الثبات والعمل الدائم المتصل فإنه سرعان ما سينهزم من الساحة، ويخلد إلى السكون والراحة.

ومن قلة الثبات عند العاملين: تنقله من مشروع إلى مشروع، وهذا يذهب بأثره أدراج الرياح، إذ للأثر العظيم النافع الباقي في الأرض شرط مهم وهو أن يسقيه صاحبه بجهده طيلة حياته، ويرعاه حتى يستوي على سوقه، ويبلغ درجة يستطيع بها إذا تركه صاحبه إلى الدار الآخرة أن يقوم بنفسه، وأن يستعصي على عاديات الزمان، أما إن ظلّ العامل سنة هنا وسنتين هناك وثلاثاً هنالك، ثم ظلّ يتنقل هكذا سائر عمره، فكيف نرجو له أثراً نافعاً وعملاً سائغاً؟

أعرف صاحباً لي في سنِّي بدأ مدرِّساً – وهذا حسن جداً – لكنه خرج من التدريس قبل أن يحدث فيه الأثر المطلوب، ثم تنقّل في المؤسسات الإغاثية والخيرية في الداخل والخارج، وقلّ أن يمكث في عمل ما سنتين، وأُعير للتدريس في الخارج، واستمر هكذا مستمرئاً عمله، راضياً بصنيعه، ثم قابلته أخيراً فأخبرني أنه يُعِد العدّة لعمل إسلامي في إحدى جزائر البحر التي لم يسمع بها أحد. فسألته: لماذا؟ قال: لأن المسلمين فها قليل جداً (لا يبلغون الثلاثمائة) وهم ضلاَّل أضلهم القاديانية، ويريد أن يبني لهم مسجداً، ويجمع لهم التبرعات، فقلت له : ليتك أخبرتني بهذا العمل، لأنه لا يصلح

لك، فبلاد العالم الإسلامي التي تحتاج إلى أعمال عظيمة أكثر بكثير وأهم من هذه الجزيرة المنقطعة التي صرفت إليها همتك.

لكن هكذا حال من يتنقل من مكان إلى مكان لا يكاد يثبت، كلما لاحت له فرصة مرجوحة أو عمل يخاله نافعاً سارع إليه، وأنا لا أزعم أنه بعمله هذا لن ينال أجراً، معاذ الله، إنما أناقش موضوع التشتُّت وعدم الثبات الذي يعاني منه كثير من العاملين.

وإليكم معشر القراء الكرام مثالاً على رجل ثبت على عمل واحد فقط قرابة سبعين سنة لكنه عظيم، فأثمر ثباته هذا ثمرة جليلة، ولا غزو فالثبات على الهدف العظيم، بهمّة عالية، واطمئنان إلى صحة العمل، يُنتج أعظم الآثار. وقد ذكر قصته الأستاذ سيد عفاني فقال:

((هذا الرجل المبارك الأُمّة المهندس محمد توفيق بن أحمد، مؤسس ((دار تبليغ الإسلام)) أثناء إقامته في سوسيرا في بعثة هندسية (1929-1931) يعمل في صمتٍ منذ خمسة وستين عاماً، وحرر مجلة البريد الإسلامي وصاحب امتيازها، والذي أسلم على يده أربعة آلاف من الأجانب، منهم قسيس يعمل أستاذاً للأدب في جامعة الڤاتكان، وقاضي جزيرة سان موريس، والقائد الهولندي ((كلنجر)) الذي أسمى نفسه ((محمد توفيق كلنجر)) تيمُّناً باسم صديقه الأستاذ محمد توفيق.

أصدر بداية مجلة اسمها ((التقوى)) وطبع من العدد الأول منها ألف نسخة، ووزعها فانتشرت بحمد الله انتشاراً واسعاً، وكان يكتب عليها – كما يكتب على مجلة ((البريد الإسلامي)): ((اقرأها وأعطِها لغيرك مشكوراً)). وواصل إصدار ((التقوى)) حتى سنة 1935.

ولما رُشِّح في بعثة هندسية إلى سويسرا عام 1929، يقول: ((وهناك شعرت بحاجة الأوروبيين للحصول على فكرةٍ صحيحة وموضوعية عن الإسلام، ومن ثم بدأت العمل لتبليغ الإسلام ((دار تبليغ الإسلام)) وهو اسم معنوي كنت أعمل من ورائه ولا زلت، وكانت كل الرسائل والإعلانات التي أبعث بها إلى الصحف الأوربية، أو أنشرها من خلالها باسم: محمد توفيق محرر مجلة ((التقوى)) في القاهرة، وكنت أتسلّم كثيراً من الرسائل على المنزل الذي كنت أسكن فيه، وبالطبع كنت أراد عليها، وفي كل مكانٍ كنت أتواجد(1) فيه أجد كثيراً من الأسئلة المتعلقة بالإسلام والمسلمين، وكانت صورة الإسلام مشوَّهة من أعداء الإسلام والمستشرقين، ومن حَسَنِي النية الذين يصدقون كل ما يقرأون فيعتقدون أن الإسلام بهذه الصورة، وذات مرة قام أحد المبشِّرين واسمه روبلي، مفتش التبشير في أسوان في ذلك الوقت، وكان بصدد جمع تبرعات للمساعدة في خدمات المستشفى التبشيري في مصر، ونشر في الصحف أنه سيلقي محاضرة عن مصر وفلسطين، وحدد موعدها وحثّ الجمهور لحضورها، وكان مكان المحاضرة في أحد المعابد الأوربية، وتصورت وقتها أنه سيتعرض في محاضرته للإسلام، وفعلاً تناول في حديثه أشياء كثيرة تمس الإسلام، وتحدث في مواضيع كثيرة عن العرب وفلسطين ومصر، وقد حمل الرجل صوراً معه إلى المحاضرة، تسيء إلى الإسلام وإلى مصر أبلغ إساءة، ومن الصور التي عرضها بالفانوس في هذا الوقت، صورة جمل، وسيدة تركب خلف الرجل في المكان المنحدر من مؤخرة الجمل تكاد تسقط، ليوحي بهذا أن معاملة الرجل للمرأة في الإسلام سيئة. ثم قال: هل تتخيلون كيف يتم الزواج هناك؟! – القول

---

(1) هذه الكلمة خطأ شائع على ألسنة الناس، والصحيح: أُوجد أو أكون أو كلمة نحوها؛ لأن معنى التواجد يدور على الطرب.

للدكتور روبلي – المرأة عند المسلمين تباع، فهناك التي يشتريها الزوج عند الزواج بعشرةِ جنيهات [1]، وأخرى بعشرين، وثالثة بخمسين، كأنك تشتري عنـزاً أو جاموسة، يمكنك أن تشتري المرأة، ويمكنك أن تتزوج ممن تعجبك بأي عدد تشاء، ولم يحدد الدكتور روبلي عدد النساء بأربع كما هو معروف!!

وبعد هذا عرض د. روبلي صورة أُخرى لرجلين يمشيان، أحدهما معه مغزله يغزل به وأمامه زوجه تحمل حملاً ثقيلاً من القمح، قدره د. روبلي حسب الصورة بأنه أربع كيلات، وقال للمشاهدين الذين يشاهدون الصورة: هل تعرفون كم تحمل هذه المرأة؟ إنها تحمل ما يساوي أربع كيلات من القمح، وبالرغم من ذلك يقول زوجها لصاحبه: سأطلّقها، بالرغم من تفانيها وتعبها في خدمته.

وبعد ذلك قال لهم: الآن سأعرض عليكم صورة لأكبر مستشفى رمدي في مصر في القاهرة، وجاء بصورة ضريح السيدة نفيسة، وتظهر عيونهم بصورة قبيحة جداً، وقد وضعت عليها طبقاتٌ من الطين بشكل قبيح، تتقزز منه العين، وقال: هذه الطبيبة – السيدة نفيسة – من نسل النبي ﷺ، أُرسلت إلى مصر لتعمي المصريين!! وقال لهم: هل تعرفون كم عدد العميان في مصر؟ وأجاب: إنهم يمثلون (30%)! وعندما انتهت المحاضرة قدّم المحاضرون التبرعات لهذا المبشر، ورغبت في أن أرد على د. روبلي، غير أن لغتي الألمانية لم تكن تسعفني في هذه المهمة، فقلت كلماتٍ قصيرة في نهاية المحاضرة، واستمع إليها الحاضرون، مؤداها أن لي تعليقاً قصيراً ستقرأونه في الصحف، وأثناء خروجي اعتذرت له عن الإسهام [1] في تقديم

---

(1) إشارة إلى المهر في الثلاثينيات من القرن العشرين.

(1) يقصد: اعتذرت له عن عدم الإسهام...

التبرعات، وعندما ذهبت إلى البيت قالت لي المرأة التي كنت أسكن عندها – غاضبةً – وقد حضرت: هل دينكم بهذا الشكل؟ وهل الحياة في بلادكم على هذه الصورة القبيحة؟! غير أني لم أنم تلك الليلة، وجئت بجميع القواميس في محاولة مني لكتابة ردٍّ يصحح ما أثره مفتش التبشير في محاضرته من أكاذيب ومغالطات، وفي الصباح صححت لي هذه المرأة الرد المكتوب بلغةٍ ركيكة، وبعثت بهذا الرد إلى الصحف، وقد نسخت منه ثماني نسخ، ونشرت الصحف الرد في صفحاتها الأولى، وذكرت أنه لمحمد توفيق محرر مجلة ((التقوى)) بالقاهرة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأسيس ((دار تبليغ الإسلام)) لتقوم بتقديم مفهوم صحيح عن الإسلام، ولتساعد الأجانب الراغبين في معرفة الحقيقة فيما يتصل بالإسلام، بلغاتهم الحية في مواجهة حملات التضليل والأكاذيب والتعصب))[2].

والغريب أن المهندس محمد توفيق أثناء إقامته بالفيوم درس في مدرسة تبشيرية، وغضب والده وطرده من البيت، وأقام إقامة داخلية بهذه المدرسة، واكتشف بفطرته أباطيل الإنجيل، وكتب في ذلك ثلاث كراريس مدرسية، ردّ بها على مستر ((جلوي)) مفتش التبشير، الذي لم يستطع الإجابة، وما قال له إلا: إن الذي كتب هذا الكلام شيطان وليس أنت. وضاق ذرعاً بالمدرسة التبشيرية، وعاد إلى أحضان أبويه بعد أن اطلع عمه – وكان ذا دين – على ما كتبه ابن أخيه ردًّا على الإنجيل.

يقول الأستاذ عبداللطيف الجوهري – مؤلف كتاب ((رجل من أمة التوحيد أسلم على يده 4000 من الأجانب)) – للمهندس محمد توفيق، أثناء

---

(2) ((رجل من أُمّة التوحيد أسلم على يده 4000 من الأجانب)) لعبداللطيف الجوهري ص 22-25. دار الصحوة للنشر.

حواره معه الذي ذكره في كتابه، وكان هذا الحوار سنة 1407ه الموافق يونية سنة 1987 ، ونشر في مجلة ((منار الإسلام)) الظبيانية الغراء ص108-113: ((ماذا عن رقم آخر بطاقة تزف للمسلمين بشرى ميلاد مسلم جديد؟ وما قصة إسلامه باختصار؟ فقال الشيخ محمد توفيق: آخر بطاقة رقم (3334) وصاحبها هولندي، جاء إلينا فأعطيته رسائلي ليقرأها، وفي مرة أخرى زارني في صحبة صديق إنجليزي معه شديد التحمس إلى الإسلام، فعندما رأى هذا الحماس لدى الإنجليزي، عاد إليّ بعدما تفرغ لدراسة الإسلام، وأقرّ بالشهادتين، وكتب إقراراً بالإسلام وأسلم))[1] .

كان الشيخ المهندس محمد توفيق يراسل مثقفي العالم الذين يريدون فكرة صحيحة عن الإسلام، ويتلقى آلاف الرسائل على صندوق بريده رقم (112) في القاهرة من مختلف أنحاء العالم.

يقول رحمه الله: ((إن اتجاهي لتبليغ الإسلام للأجانب، دفعني إليه – بالإضافة إلى واجب التبليغ على كل مسلم – افتتان العرب والمسلمين بالأجانب، فيما يعرف ب((عقدة الخواجة)) فأردت أن أتخذ من الأجانب حقلاً للدعوة الإسلامية، فإذا أسلم هؤلاء الأجانب، لفت ذلك أنظارنا في بلاد العرب والمسلمين – مما يلفتنا – إلى عظمة ديينا وضرورة الالتجاء إليه والتشبُّث بهديه))[2] .

ويقول: ((إنني في مجال تبليغ الدعوة للأجانب، لا أترك الأجنبي الذي يراسلني بصدد دعوة الإسلام إلا بعدما يعلن الشهادتين، وفي العادة قد

---

(1) رجل من أمة التوحيد ص27.

(2) المصدر السابق: ص59 .

تطول المراسلة أو تقصر، وأقصر مراسلة انتهت بإعلان إسلام أحد الأجانب من ألمانيا استمرت شهرين، وأطولها استمرت سبعة عشر عاماً مع رجل من تشيكوسلوفاكيا، ومع هذا الأخير الذي كانت تربطني به صداقة، وكان يتردد على القاهرة ويتفضل بزيارتي، وكان مصرًّا على التمسك بعقيدته، بيد أنه جاءني ذات مرة بعد مرور سبعة عشر عاماً على صداقتنا، وقال لي: إنني أحمل لك مفاجأة، فقلت له: ما هي؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله))[1] .

رحمه الله، لقد تفرّغ تفرغاً تاماً لمراسلة الأجانب والرد على استفساراتهم طوال عمره المبارك الذي يناهز التسعين عاماً.

كتب إليه رجلٌ نصراني أجنبي: إن عمري ثمانون عاماً، وقد دأبت منذ نعومة أظافري على التردد على الكنيسة، وإن ما قدمته من معلوماتٍ عن المسيح يفوق ما عرفت عنه في الكنيسة.

يراسل الشيخ محمد توفيق صيدلياً كاثوليكياً يسكن في ((بازل)) على الحدود الفرنسية وزوجته، مدة طويلة بعد طول جهدً معهما، ويرسل إلى زوجة هذا الصيدلي ترجمة معاني القرآن الكريم، وتستوقفها أشياء، ويسافر الشيخ إلى ((بازل)) ويصل بقطار الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانوا في انتظاره – الصيدلي وزوجته وأولاده – ولم يكونوا يعرفونه، وكان قد وافاهم بمواصفاته، وأنه طويل نحيف بنظارة ومعه كتاب لونه أحمر، وكان قد حمله ليُعرَف به، واهتدوا إلى معرفته، وفور وصولهم إلى البيت قالت له زوجة الصيدلي: هل أ،ت متوضئ؟ فقال لها: نعم، فقالت: ونحن أيضاً متوضئون، ثم طلبت منه أن يصلي بهم إماماً، فتأثر وبكى.

---

(1) المصدر السابق: ص59، 60 .

أم نقُص حكاية الصبي الألماني، الذي كان والده يراسل الشيخ في موضوع ((الإسلام)) ووصلت مراسلته إلى قناعته بالإسلام، وكان الشيخ في مراسلته قد ذكر له أن أول من أسلم من الصبية علي بن أبي طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن النساء خديجة بنت خويلد، وبعد ما أعلن الرجل إسلامه، وبعث إلى الشيخ بإقرار الشهادة، أرسل إليه الشيخ شهادة اعتناق الإسلام، وعقب ذلك تلقى الشيخ رسالة من ابن الألماني الصبي وقال: أرجو أن ترسل لي الإقرار للتوقيع عليه، وشهادةً باعتناق الإسلام مثل أبي، فكتب إليه الشيخ يستمهله حتى يكبر ويزداد تعرُّفه على الإسلام، فأرسل من فوره رسالةً ذات منطقٍ مفحم، أقنع الشيخ وأثّر فيه كثيراً حيث قال في رسالته: ((هل طلب محمد بن عبدالله من يرَ إلا أن يلبي طلبه فوراً، ويرسل إليه الإقرار ليوقعه، ثم الشهادة باعتناق الإسلام))[1].

يقول الأستاذ أنور الجندي عن المهندس محمد توفيق أحمد: ((هذا رجل ليست له شهرة الأدباء، ولكن له مكانة العاملين في مجال الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية في صدقٍ وثبات، وقد اختار مجالاً لا يكاد ينافسه فيه أحد، وهو المحيط الخارجي، وفي قلب أوروبا بالذات، وأصدر مجلة ((البريد الإسلامي)) الزاهرة عام 1943م، وأنشأ ((دار تبليغ الإسلام)) قبل ذلك عام 1929م، بدأ عمله في سويسرا عن طريق الرسائل والإعلانات، ففي كل محطةٍ من المحطات على طول الطريق من النمسا إلى زيورخ إلى بازل، تجد لُوَحاً تقول: ((لقد عملت خطأ عن الإسلام، إن كنت تريد أن تعرف الحقيقة، فاكتب إلى فلان، فإذا أرسلت إليه، أرسل لك كتباً صغيرة موجزة)) وقال لي : أرسل لي خمسةً من أصدقائك، ولا يلبث أن

---

(1) رجل من أمة التوحيد ص 85.

يرسل لهم بطاقاته، وامتد عمله في النمسا والسويد والنرويج وفرنسا، ونما هذا العمل الصامت الخالص لوجه الله، وفي سبيل التعريف بالإسلام، وتحرير مفاهيمه، حتى كتب إلى مائة ألفٍ من البشر، قال لهم كملة التوحيد، فكسب منهم أصدقاء، وكسب منهم معتنقين، ونشأ من خلال ذلك في هذه الأقطار مجتمعات إسلامية))[1].

يا سبحان خالق الهمم ... يرسل خطابات إلى مائة ألف شخص !!

ويقول الصحفي المغربي الأستاذ عبدالقادر الإدريسي عن الشيخ محمد توفيق في مقالة ((الرجل المؤسسة)):

((أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف شخص، هذا هو المدخل الرئيسي إلى عالم صاحبي، التقيت به مرتين، تفصل بينهما ثلاث عشرة سنة كاملة، لم يتغير الرجل طوال هذه المدة، بل استطيع أن أقول: إن قوته وعزيمته تزدادان مضاءً مع توالي الأعوام، الإشراق في عينه يجذبك إليه بقوة، رجل ليس كالرجال، قمة من القمم الشامخة التي وهبت حياتها لله رب العالمين يحتفظ بمكتبه – الذي يشغل جناحاً من شقته المتواضعة – بملفاتٍ كاملةٍ عن الأشخاص الذين اهتدوا إلى دين الله على يده، أصنا متعددة من البشر، الصفة التي تجمعهم أنهم خارج الوطن الإسلامي، والحكاية لها بداية جديرة بالتسجيل: رحل صاحبي إلى أوربا في الثلاثينيات، وأقام بإحدى المدن السويسرية، حيث عمل في الهندسة الكهربائية، وطالت إقامته في تلك الديار، وأقام علاقات عديدة مع مختلف الطبقات، مما أكسبه حسن السمعة وطيب الذكر، وأخذ في الدعوة إلى الإسلام في الأوساط المسيحية، ولقي عمله إقبالاً

---

(1) رجل من أمة التوحيد ص 111-112. نقلاً عن مقالة في مجلة ((المنهل)) الحجازية في رجب سنة 1390 الموافق سبتمبر سنة 1970 بعنوان ((لقاء مع جيل الرواد المهندس محمد توفيق أحمد)).

كبيراً، وفوجئ بتدفق لم يكن يتوقعه من شتى الأوساط، المتعلمة والمثقفة والعادية، فزاده ذلك إقبالاً على المضي في هذا الطريق، ودخل الكنائس والمدارس والسجون والنوادي الليلة، وأخذ ينفق على الدعوة من دخله الشخصي، وهداه تفكيره إلى استئجار الأماكن العامة، مثل: دور السينما والنوادي وقاعات الاجتماعات، لإلقاء المحاضرات وإدارة الندوات، وفجأة وجد نفسه في عالمٍ لم يخطط له. كان في البداية يقدّر أن المسألة لا تعدو أن تكون عملاً متواضعاً. يقصد به وجه الله لا أقل ولا أكثر، فإذا به أمام نتائج باهرة وحركة واسعة وإقبالٍ لم يخطر على بال، وإذا باسم الرجل يتردد في أكثر من جهة في أوربا، وإذا بالصحافة تكتب عنه، وإذا برجال الكنيسة يتحركون لمعرفة السر وراء هذا النجاح، فلما أيقنوا أن الرجل لا يدعمه أحد سوى الله، كفُّوا عن المناوشة وسلّموا أمرهم لله، حتى إن بعض الرهبان والقساوسة أخذوا يترددون عليه في مقر إقامته بمدينة بادن (أرجاو) بسويسرا لمناقشته والأخذ عنه، وكتب الله لهذا العمل المتواضع الخالص لوجهه الكريم، أن يتسع ويمتد ويشع وينمو في اطراد، وكان أن ارتفع المعدل الشهري للذين يُقبلون على الإسلام، وبمرور الأعوام قفزوا إلى الألف الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، وهذا كله من فضل ربي الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً. اتخذ لنفسه شعاراً يلخصه في الجملة التالية : ((الناس جميعاً أسرة واحدة، ربها واحد، ودينها واحد، هو الإسلام الذي دعا إليه جميع رسل الله الكرام، والسعيد الناجي مَن فهم القرآن، وعمل على نشر تعاليمه التي تحقق المحبة والسلام بين بني الإنسان)) وهو يطبع هذا الشعار على الرسائل التي يوزعها مجاناً بسبع لغات على القارات الخمس. هذا الرجل تخطى عتبة الثمانين ولا يزال في فتوة وحيوية الشباب.

رجل يستحق التكريم ممن جعل الله تكريم الرجال على أيديهم، لقد أسعدني أن ألتقي بالمهندس محمد توفيق بن أحمد سعد، وهذا اسمه بالكامل.

ألستم معي أن هذا الرجل يضاهي عمله المؤسسات، إنه يحق الرجل المؤسسة، ولا عجب))[1].

وتحت عنوان ((مع العاملين في صمت وبلا دعاية)) كتب الأستاذ محمد الجندي: ((يذكر المهندس توفيق أحمد، أنه في الوقت الذي تحاصر فيه الصحافة الإسلامية وتخضع لأجهزةٍ متعددة من الرقابة، فإن جمعية ((شهود يهوه)) تُصدر مجلة تسمى ((برج المراقبة)) وتوزع منها عشرة ملايين نسخة، وبتسع وسبعين لغة ولهجة في العالم، بينما كل المجلات والصحف في العالم الإسلامي لا تتجاوز إصدارتها في مجموعها على العالم الإسلامي لا تتجاوز إصداراتها في مجموعها على مليون نسخه، وفي عددٍ محدود من اللغات، علماً بأن جمعية ((شهود يهوه)) هي مؤسسة يهودية ترتدي ثوباً نصرانياً مزيفاً، وتقوم على مبدأ خداع الجماهير المسيحية الساذجة، وإدخال نبوءات التوراة المحرفة في النفوس، والتي منها ما يبشر بعودة اليهود إلى فلسطين والتي تخدم الفكر الصهيوني. ودار تبليغ الإسلام تقوم على شخصٍ واحد، هو ((الساعي ومسؤول العلاقات العامة والمحرر ورئيس التحرير ومسؤول المراسلات والتمويل وغيرها)) وقد وصفته إحدى المجلات الإسلامية بأن هذا الجهد الكبير، الذي يقوم به، لا تستطيع مؤسساتٌ بكاملها عمله، ورجحت جهده على جهد أحد المؤتمرات الإسلامية، والتي أشرفت عليه مجموعة دولٍ في إحدى العواصم الأوروبية عام 1976، وكان هذا المؤتمر يهتم بالتراث من خلال مخطوطاتٍ إسلامية ومجموعة محاضرات، ورغم هذا لم يعلن أحدٌ إسلامه.

---

(1) مجلة ((المسلمون)) الدولية بلندن، العدد الصادر في 21 من رجب سنة 1402 الموافق 14 من مايو 1982م.

ويمنح المهندس توفيق أحمد شهادةً بإسلام من يرغب من الأوروبيين، ولا يتم منح هذه الشهادة إلا بعد إجراء الاختبارات الدقيقة حول الدوافع من اعتناق دين الإسلام، ويكتب في الشهادة أي خروج على تعاليم الإسلام يلغيها))[1].

((إقرأها وأعطِها لغيرك مشكوراً، ولا تحتكرها فتأثم)) كُتِبَت هذه العبارة على مجلة البريد الإسلامي، فرحم الله الرجل الأُمَّة المؤسسة، عالي الهمة، الشيخ الداعية المهندس محمد توفيق، الذي أسلم على يديه أربعة آلاف شخص، وكتب إلى مائة ألف شخص يدعوهم إلى الإسلام، هذه الأسوة والقدوة))[1].

هذا العمل العظيم هو الذي ورث هذا الأثر الجليل، وكان ذلك ناتجاً عن عمل ثبت عليه صاحبه لمدة تقرب من سبعين عاماً، فهل يعتبر الذين يغيرون أعمالهم كل مدة ليقفزوا إلى عمل آخر، حتى تنتهي حياتهم ولم يخرجوا بشيء كبير ذي أثر جليل؟!

جـ- التفاؤل والثقة:

لابد لمريد الأثر النافع أ، يكون متفائلاً، واثقاً بالنصر والتمكين، بعيداً عن النظرات السوداوية، والتشاؤم المُهلِك، ناظراً إلى الحياة على أنها سلسلة من البلاءات يتخللها ثقة وتفاؤل، ويعقبها نصر وتمكين وتداول، ولقد كان النبي الأعظم سيدنا محمد ﷺ سيد المتفائلين ومقدّم الواثقين، لا تزحزحه أعاصير الأحداث العظام، ولا تؤثر في ثقته وتفاؤله المِحَن والزلازل.

---

(1) مجلة ((الهدى)) الخليجية، العدد الصادر في يوم الجمعة 14 من ذي الحجة سنة 1405هـ.

(1) ((صلاح الأمة في علو الهمة)): 2/114-124.

وكان يبشر سراقة بلبس سواري كسرى وهو مهاجر مهدَّد.

وكان يبشر أصحابه في الخندق بفتح فارس والروم واليمن وهم في أشد الساعات حلكة وخوفاً[2].

وكن يطمْئِن أصحابه ويبشرهم وهم تحت العذاب في مكة، فعن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو محمرٌّ وجهه فقال:

((لقد كان من قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مَفْرِق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه))[1].

بمثل هذه الثقة وذلك التفاؤل تستقر النفوس، وتستمر في أعمالها وإنتاجها حتى تخلف الآثار العظيمة والأعمال الجليلة، ومَن لا ثقة له بالنصر ولا تفاؤل عنده عاش محطماً يائساً، سوداوي النظرات، فكيف سيُنتج مثل هذا عملاً نافعاً ذا أثر مهم في حياة الناس؟!

د- الشجاعة والإقدام:

وهما صفتان لازمتان لكل من يريد ترك الأثر النافع، فإن الدنيا لم تُخلق للجبان، ولا للمتقاعس المتردد الضعيف، والحياة فرص مَن اغتنمها فاز، ومَن تخلّف عنها تجرّع الغُصَص، ولا تعني الشجاعة التهوُّر، لا، بل هي أمرٌ بين الجُبن والخور وبين التهور.

---

(2) وانظر مسند الإمام أحمد من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه.

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: باب ما لقي البنيّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

إذا هبّــت رياحــك فاغتنمــها   فــإن الخافقـاتِ لهـا سكــونُ

والزمان لا ينظر المترددين الوجلين، ولا شديدي الحذر الخائفين، الذين يقدمون رِجلاً ويؤخرون أخرى، والذين يقفون عقبة في وجه كل مشروع نافع، ولئن سألتهم عملاً نافعاً سارعوا برده وتهويل شأنه، ولئن طلبت منهم المشورة تبرعوا بسيل من التخويفات والتيئيسات، لذلك كانت العرب تنهى استشارة الجبان الخائف.

وما أحسن هذا التعريف للشجاعة:

((هي الإقدام الاختياري على مخاوفَ نافعة في غير مبالاة))[1].

وقيل: ((هي هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بين التهور والجبن، بها يُقْدَم على أمور ينبغي أن يُقْدَم عليها...))[2].

وقيل: ((هي الإقدام على الأمور النافعِ تحصيلُها أو دفعها، وتكون في الأفعال والأقوال))[3].

وقال الطُرطوشي[4]:

---

(1) ((التوقيف على مهمات التعاريف)): 202 نقلاً عن ((نصرة النعيم)): 2322/6.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) هو محمد بن الوليد بن خلف، أبو بكر الفهري الأندلسي. انظر ترجمته في ((سير أعلام النبلاء)): 490/19 وما بعدها.

((واعلم أن كل كريهة تُرفع، أو مَكْرمة تكتسب لا تتحقق إلا بالشجاعة ... جميع الفضائل ما لم تقارنها قوة نفس لم تتحقق ... وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل ... وبقوة القلب يقتحم الأمور الصعاب ... وبقوة القلب يتحمّل أثقال المكاره ... وبقوة القلب تُنفذ كل عزيمة أو جبها الحزم والعدل))[5].

وقال غيره:

((وأعظم ما ينمي الشجاعة ويمدها: الإيمان بالله، وقوة التوكل على الله، وكمال الثقة به سبحانه، وعِلْمُ العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن لصيبه، ويمده أيضاً الإكثار من ذكر الله والثناء عليه ...

ومن أسباب تقوية هذا الخلق الفاضل أيضاً التمرين، فإن الشجاعة – وإن كان أصلها في القلب – فإنها تحتاج إلى تدريب النفس على الإقدام، وعلى التكلم بما في النفس بإلقاء المقالات والخطب في المحافل، فَمن مرّن نفسه على ذلك لم يزل به الأمر حتى يكون ملكه له ...

والإخلاص لله وعدم مراعاة الخلق سبب بالغ في تقوية ذلك، فإن المخلص الذي لا يريد إلا وجه الله وثوابه لا يبالي بلوم اللائمين إذا كان في ذلك رضىّ لرب العالمين.

فمتى قوي إيمان العبد بالله وبقضائه وقدره، وقوي يقينه بالثواب والعقاب، وتمّ توكَّله على الله، وثقته بكفاية الله، وعلم أن الخلق لا يضرون ولا ينفعون، وأن نواصيهم بيد الله، وعلم الآثار الجليلة الناشئة عن الشجاعة: قوي قلبه، واطمأن فؤاده، وأقدم على كل قول وفعل ينفع الإقدام عليه.

---

(5) ((سراج الملوك)): 668/2 ونقلت عن ((نضرة النعيم)): 2323/6.

ولا بد لمَن كانت هذه حاله أن يمده الله بمدد من عنده لا يدركه بحوله ولا قوته.

وكمال زينة هذا الخلق النبيل أن يكون موافقاً للحكمة، فإنه إن زاد عن حد الحكمة خُشي أن يكون تهوراً وسفيهاً، وإلقاء باليد إلى التهلكة، وذلك مذموم كما يُذم الجبن والخَوَر، فالشجاعة المحمودة تتوسط خلقين ذميمين وهما الجبن والتهور، وتكون محمودة إذا كان المقصود بها نصر الحق، ورد الباطل، وتحصيل المنافع العامة والمصالح المشتركة))[1].

وهذا كلام رائع جليل، لا مزيد عليه.

هـ- الجدية:

والجدية ((حالة من التقيظ المتواصل المستديم تتيح استغلالاً وافراً لطاقات الدعاة في سد الحاجات واستثمار الفرص دون تعطيل لشيء منها، وهذه الجدية الدائمة منضبطة بما ذكره الرافعي[1]:

((إن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبالغ الكسل والإهمال))[2].

---

(1) من كلام الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى في كتابه ((الرياض الناضرة، والحدائق النيِّرة الزاهرة)): 54-60، وقد نقلته من ((نضرة النعيم)): 6/2324-2325.

(1) مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد الرافعيّ، عالم بالآداب، من كبار الكتاب، وشاعر، أصله من طرابلس الشام، وولد في بَهْيتم بمصر سنة 1298، أصيب بصمم، وشعره فيه جفاف، ونثره من الطراز الأول، توفي في طنطا سنة 1356 رحمه الله تعالى. انظر ((الأعلام)): 7/235.

(2) ((الفتور)): 39-40.

ويقول الإمام البنّا – رحمه الله تعالى – واصفاً الجدية:

((أستطيع أن أتصور المجاهد: شخص قد أعدّ عُدّته، وأخذ أهْبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً، إن دُعي أجاب، أو نودي لبّى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعدّ نفسه له)) [3] .

وفي الوقت نفسه يصف عكس حال المجاهد الجاد فيقول:

((الذي ينام ملء جفنَيه، ويأكل ملء ماضغَيه، ويضحك ملء شدقَيه، ويقضي وقته لاهياً لاعباً عابثاً فهيهات أن يكون من الفائزين أو يُكتب في عداد المجاهدين))[4] .

ولا يخفى أن وصف البنا لذلك الشخص الجاد إنما هو وصف عزيز قد لا ينطبق إلا على أفراد من الأمة قلائل، جعلنا الله منهم، وإنما كلامه مثال يُقترب منه ويُبتعد بحسب التوفيق الإلهي.

ويخاطب الإمام المودودي[1] – رحمه الله تعالى – الأمة حاثاً لها على الجد:

---

(3) المصدر السابق: 40-41 .

(4) المصدر السابق.

(1) أبو الأعلى المودودي، العلامة الداعية، وُلِدَ في أورانج آباد في الهند سنة 1321، واشتغل بالدعوة والجد والاجتهاد حتى استقلت باكستان عن الهند فانتقل إليها وطالب الحكومة بتطبيق الشريعة فسجن مراراً. نال جائزة الملك فيصل 1399 وله مؤلفات كثيرة، توفي رحمه الله تعالى سنة 1399. انظر: ((تتمة الأعلام)): 73/1-75.

((من لوازم المجاهدة في سبيل الله تعالى حماسة القلب وتعلقه بالغاية... إن من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاد فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم في سبيل غايتكم، تعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، تستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين، وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكارَكم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم...))[2] .

وهذا كلام راقٍ شافٍ لا مزيد عليه، فإن لم يتحرك به وله المرء فبماذا ومتى يتحرك؟!

***

---

(2) ((تذكرة دعاة الإسلام)): 40-41.

الركن الثالث: الهدف العظيم

وهو ركن ركين، لا بد منه لكل طالب أثر عظيم، وذلك بأن ينظر حوله يمنة ويسرة متطلباً الثغرات ليعالجها؛ إذ في عالمنا الإسلامي اليوم ثغرات كثيرة، فليعزم على أن يسد ثغرة من تلك الثغرات، وسبيله هو :

أن ينظر في ملكاته ومواهبه، وما وضعه الله تعالى فيه من قدرات.

ثم لينظر إلى تلك الثغرات نظر فاحص متأمّل.

ثم ليختر منها ثغرة تميل نفسه إلى العمل على سدِّها، وتساعده قدراته ومواهبه على هذا.

ولا ينسَ أن ينظر إلى بيئته ومجتمعه، وأحوال زمانه، وما يتيسر له من العمل على ضوئها.

وهذا سيكون هو هدفه في الحياة الذي يسخِّر له كل قدراته ومواهبه وملكاته، ويعمل ليل نهار للوصول إليه.

ومهما اتسعت الثغرة وتشعبت على المسلمين كان العامل لسدها عاملاً في شيء عظيم، وبمقدار التوفيق الذي يدرك العامل، والعناية التي تشمله سيكون هدفه عظيماً وعمله كبيراً.

ولتوضيح هذا فإني أمثّل بمثال:

هناك ثغرة تقنية علمية صعبة على المسلمين، بل هي فضيحة؛ إذ المسلمون اليوم عالةٌ على غيرهم في المنتجات التقنية، والأبحاث العلمية، وفي الغذاء والدواء، والكساء والسلاح، وسمِّ ما شئت مما اشتدت حاجة الناس إليه اليوم، أو كان من التحسينيات ولوازم الرخاء وبُلَهْنِيَةِ العيش، فإن المسلمين قد قصروا في تحصيله تقصيراً بيِّناً، فإذا أتى شاب نابغة ذو

مواهب وأراد أن يصنع شيئاً حسناً بمواهبه وقدراته تلك فليسد على المسلمين تلك الثغرة، وليعمل ليل نهار على تحصيل الأسباب التي تمكِّنه من ذلك، من تحصيل لغة أجنبية، ومواصلة الدراسة الراقية المفيدة حتى يستطيع بعد سنوات تطول غالباً أو تقصر أن يسد شيئاً من تلك الثغرة، وأن يخرج للمسلمين بشيء نافع، ألا ترون أن أكثر الطلاب اليوم لا يكادون يعودون بدراستهم – ولو كانت عُليا – على المسلمين بشيء نافع عظيم يسد عليهم ثغرة ضخمة تعصف بهم، وتعرضهم للذل والهوان، والحاجة إلى الأعداء.

إذاً: لا بد لكل راغب في أن يترك أثراً عظيماً أن يكون هدفه عظيماً، وبمقدار عظم الهدف يعظم الأثر ويرسخ.

أثر الشيخ أحمد ياسين[1]:

وأضرب للمؤثرين مثلاً عظيماً وهو الشيخ المجاهد، المقعد، حجة الله على الأصحاء، الشهيد بإذن الله: أحمد ياسين، هذا الرجل العظيم ترك أثراً عظيماً جداً ألا وهو تحول أكثر فلسطينيي زماننا إلى الإسلام بعد ارتماء طويل في أحضان العروبة والقومية، والبعثية والماركسية، واليسار واليمين، وسب الإله وسب الدين، فجاء الله تعالى بهذا الرجل المقعد فنظر حوله فإذا بأعلام الإسلام منكّسة، ورايات الكفر والضلال عالية مؤثرة، فآلى على نفسه أن يعيد للإسلام في تلك الديار المقدسة مجده من جديد، فاستعان بالله تعالى ثم بعصبة قليلة مؤمنة، فصار يجوب المساجد والمعاهد والبيوت والمدارس، متنقلاً من مكان إلى مكان، يربي الغلمان الصغار والفتية الناشئين، يربيهم على الإسلام وحب الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الجهاد في سبيل الله، فتحقق على يديه بفضل الله تعالى ما يشبه المعجزة، وما هو كالمستحيل، وصارت

---

(1) ولد سنة 1355، وتوفي شهيداً – إن شاء الله تعالى – سنة 1425 رحمه الله تعالى وتقبله في الخالدين.

الكلمة المسموعة، والراية المرفوعة لأهل الإسلام والإيمان، وانزوى أهل الضلال والفساد، وصار أصحابه هم أسياد البلاد، ولله الحمد والمنّة.

وكأن الله تعالى أراد أن يقول للناس: بهذا المقعد سأقيم الملّة، وبهذا المشلول سأحيي البلاد، وبهذا الجالس سأُنهِض العباد، الله أكبر.

نبذة عن تطور المشهد الإسلامي في فلسطين:

سأسوق للقراء الكرام نبذة موجزة – لا بد منها – توضح بجلاء كيف كان أثر هذا الشيخ المجاهد عظيماً في فلسطين، وكيف نقل هو وإخوانه أهلها إلى الإسلام نقلة نادرة، وليتحمل القارىء الإطالة في هذه النبذة لأنها توضح ما أريد من أنه كيف يحقق الإنسان الأثر القوي الضخم في هذه الحياة إذا وضع الهدف العظيم نصب عينيه:

لقد عاش أكثر الفلسطينيين **40** سنة تقريباً وهم متفلّتون من التعاليم الإسلامية، وإذا أردت تحديد المدة فإنه سيصعب علي هذا في هذه الدراسة الموجزة لكني أقدّرها من أواسط الثلاثينات الميلادية من القرن الفائت إلى أواخر السبعينات، إذ قبل الثلاثينات كان الالتزام بالإسلام ومظاهره أمراً سائداً ولو من باب التقاليد ومراعاتها، وبعد ذلك أخذت المظاهر الإسلامية تخفت شيئاً فشيئاً إلى أن أتى على الناس زمان في فلسطين تلاشت فيه أو قلّت مظاهر الالتزام بالإسلام، ورمت أكثر النساء الحجاب، وترك أكثر الناس الصلاة حتى الجمعات، وانتشرت المذاهب الضالة كالقومية العربية، والناصرية، والبعثية، والماركسية في أرض فلسطين الطاهرة – أرض الأنبياء – ومَن اطلع على تلك المدة وكتابات علماء المسلمين عنها – أمثال:

الأستاذ عبدالله عزّام [1] – يعلم صدق ما أورده، حتى إذا جاءت نهاية السبعينات الميلادية من القرن الفائت، وابتدأت الصحوة بالإنتشار في مصر وسوريا وغيرها، تأثّر بها الفلسطينيون، وابتدأت مظاهر الالتزام بالإسلام تنتشر في فلسطين على وجه أرعب إخوان القردة والصليبيين من ورائهم، وسأورد في الصفحات المقبلة – إن شاء الله تعالى – تسلسلاً موجزاً جداً يبين ما جرى هنالك، وذلك حتى ابتداء الثمانينات الميلادية من القرن الفائت، أما ما حصل بعدها إلى اليوم من الانتفاضات الجهادية المتكررة حتى استلام الحركة الإسلامية الحكم في فلسطين فشيء يعجز القلم عن تتبُّعه، ويعتقل اللسان عن التعبير به، وحسبي الإشارة بأوجز عبارة إلى المدة التي ذكرت فهي تعبّر بوضوح عن ظهور الآثار الأولية لعمل الشيخ العظيم، وهذا – ربما – هو الذي يخفى على أكثر القراء، وأما ما جرى في الانتفاضات الجهادية إلى استلام الحكم في فلسطين فهو تتويج للعمل العظيم وإظهار للأثر الكبير لهذا الشيخ المقعَد وإخوانه العظماء، وأكثر القراء مطَّلعون عليه، ونحن ما زلنا إلى اليوم نعيش فرحته وبهجته، ولله الحمد.

مشاهدات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى[1]:

زار فلسطين سنة 1947 – قبيل النكبة – فقال: ((لمست أثر اليهود في الرجس الذي بثُّوه في أرجائها، حتى أنني لما ذهبت أسأل عن فندق

---

(1) عبدالله بن يوسف عزام: عالم، مجاهد، مصلح، ولد في قرية من أعمال جنين بفلسطين، سنة 1360، درس في كلية الشريعة بدمشق، ونال الماجستير والدكتوراه من الأزهر، له كتب كثيرة. توفي شهيداً – إن شاء الله – في بشاور سنة 1410 رحمه الله تعالى. انظر((تتمة الأعلام)): 2/30-32.

(1) مصري الأصل، شامي المولد والنشأة ، المكي الوفاة ، أحد أعلام العربية، كان قد عمر طويلاً فمات يوم مات وهو أفضل أدباء العربية، له مصنفات كثيرة ممتعة مفيدة، تولى مناصب التدريس والقضاء بالشام. ولد سنة 1327 وتوفي سنة 1420 رحمه الله تعالى. وانظر ترجمته في ((ذيل الأعلام)): 2/134-135.

مناسب قال لي المسؤول: أتريد فندقاً للنوم أم ل... وأشار بيده إشارة قرنها ببسمة مِن فِيه.

قلت: ما أدركت ما تريد.

قال: تريد فندقاً ببنات أم بلا بنات؟

فتركه وانصرفت عنه وحسبته يمزح معي أو يسخر مني.

ولكني لما ولجت كثيراً من الفنادق دخلتها لأختار واحداً منها، رأيت بنات جالسات كأنهن من نزيلات الفندق، وعلمت بعدُ أنهن يهوديات، ثم خبَّروني أن مَن شاء أشار بيده إلى واحدة منهن دلّ عليها كاتب الفندق، فذهب معها نصف ساعة إلى غرفتها، أو ذهبت معه ليلة أو بعض ليلة إلى غرفته.

بغاء معلَن وعهر ظاهر...

فقلت: أما في البلد علماء؟ أما فيه جمعيات إسلامية تُعنى بالإصلاح؟

قالوا: بلى، هذه الجمعية الخيرية، وأشاروا إلى مكان قريب منا، فصعدت سُلَّماً فإذا أنا في رحبة متسعة فيها الأعضاء مجتمعون... فوصفت لهم ما رأيت من القذارة المعنوية في الفنادق والقذارة المادية في السوق، وحملت عليهم حملة منكرة، ونفثت ما في صدري، ونفّست بذلك عن نفسي، وبدا لي أنني أوجعتهم بالكلام فاعتذروا بأنهم لا يملكون شيئاً، وذكروا اليهود والإنجليز، والإنجليز رأس كل بلاء رأيناه، وهم الذين جاؤوا باليهود، وكانوا يحمون اليهود... ثم ذهبنا بعد انتهاء الجلسة إلى دار القاضي نزوره، وكان في عمارة تحتها مقهى رأيت فيه نساء جالسات، فقلت: وهل يجلس النساء عندكم في المقاهي؟ فكأنهم خجلوا من سؤالي، وأحبوا أن يبتعدوا عن جوابي،

فأصررت، ففهمت منهم أن هؤلاء الجالسات يهوديات يقعدن في المقهى ليستلبن شاباً غريراً يُفسدن أخلاقه ودينه...))[1] .

وهذه المشاهدات التي شاهدها الشيخ على وجازتها وجزئيتها تبين كيف كان المجتمع ضائعاً، وتبين بجلاء كيف كان العجز مستولياً على المصلحين إزاء ما يحدث من الصليبيين البريطانيين ومن اليهود من هدم للأخلاق، وانتشار للفحشاء.

وهذا في الحقيقة هو الذي مهّد للهزيمة الكبرى سنة **1367 – 1948** خاصة أن ما ذكره الشيخ علي كان واقعاً سنة **1947** قبيل النكبة بقليل.

مشاهدات اللواء أركان حرب محمود شيت خطاب[2]:

في حرب سنة **1367 – 1948** دخل هذا اللواء الكبير فلسطين مجاهداً من العراق، فيقول:

---

(1) ((ذكريات)): 5/72-74.

(2) ضابط عراقي كبير وقائد عسكري، وداعية مجاهد، ومؤرخ أديب. ولد في الموصل سنة 1338، يتصل نسبه بالنبي ﷺ من جهة الحسن بن علي، حصل على شهادات عسكرية متعددة، وتولى منصب الوزارة في عهد عبدالسلام عارف مرات ثم استقال وتفرّغ للتأليف، كان عضواً في عدة مجامع لغوية. قدّم للمكتبة الإسلامية 354 كتاباً أكثرها مخطوط ، توفي سنة 1419 رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في ((ذيل الأعلام)): 2/181-182 .

((ودخلنا فلسطين، وكانت أول مدينة رأيناها هي مدينة أريحا التاريخية، فوجدنا المقاهي والنوادي والشوارع والمحلات العامة فيها تغص بالشباب الفلسطيني: يلعبون النرد أو الشطرنج، وكأن الحرب ليست قائمة بين العرب واليهود.

وتكرر نفس المنظر في مدينة نابلس، وتكرر نفس المنظر أيضاً في مدينة جنين.

وكان أول انطباع في نفسي هو شعوري العميق بأن الشباب الفلسطيني يجب ألا يكون مكانه هنا تحت أجنحة الدعة والراحة والسلام، بل يجب أن يكون مكانه هناك في ساحات القتال دفاعاً عن وطنهم السليب...

وقد كانت التربية الاستعمارية[1] ذات الأهداف الخبيثة قد تركت آثاراً سيئة في نفوسهم، فقد أشاعت في نفوسهم حب الترف والاستمتاع بالحياة، ولم توجههم الوجهة الوطنية الصحيحة.

لقد كان هؤلاء الشباب في الأيام الحاسمة من محنة وطنهم طاقاتٍ مضيعة، كانوا جهداً مضاعاً، كانوا قطيعاً بلا راع))[2] .

حجاب النساء:

---

(1) أي البريطانية، وكانت بريطانيا قد أخذت فلسطين سنة 1918 أي قبل ثلاثين سنة من دخول محمود شيت.

(2) ((طريق النصر في معركة الثأر)): 16-17.

لقد ابتدأ ظهور التفسُّخ في حجاب النساء في فلسطين منذ أواخر الثلاثينات من القرن الماضي، فقد أصدر أحد المجاهدين من ورثة الشيخ القسام، وهو: عبدالرحيم الحاج محمد، بلاغاً باسم ديوان الثورة العربية الكبرى في سنة **1938** يذكر فيه أنه ((بلغنا أن بعض النسوة حريصات على التشبُّه بالزي الإفرنجي، مهملات أمر الطرحة))[1] .

وذكر الأستاذ محسن صالح أنه ((قد حرصت المرأة في فلسطين على الاحتشام في جميع الأشياء، وكانت النساء يرتدين الحجاب الذي يتألف من الفستان والجلباب أو الترواق الذي يغطي سائر جسم المرأة، كما حرصت نساء المدن العربيات على لبس النقاب على وجوههن... ولم تتغير صورة التزام المرأة بهذا الزي إلا أثناء الانتداب البريطاني، إذ كانت النساء المتعلمات يرتدين الزي الأوروبي، وترك قسم منهن الحجاب وسرن سافرات، وبعضهن استبدله بغطاء للرأس فقط))[2] .

وبين يدَي كتاب سجل فيه وقائع المؤتمر النسائي الشرقي المنعقد بدار جمعية الاتحاد النسائي المصري بالقاهرة من **15 – 18** أكتوبر سنة **1938** للدفاع عن فلسطين، وجاءت له مندوبات من فلسطين وسوريا ولبنان، والعجيب أن وفد فلسطين كان فيه قرابة خمس وعشرين امرأة كنّ كلهن

---

(1) ((التيار الإسلامي في فلسطين)): 405.

(2) المصدر السابق: 35-36.

سافرات لم يكن بينهن امرأة محجّبة كما ظهر من صورهن العديدة التي صُوِّرت في الكتاب[3].

ومما يتعجب منه أن خبراً ورد في الكتاب أن ((سيدات نابلس الباسلات يخرجن عن التقاليد ويَسِرن سافرات لجمع التبرعات، وأنه لأول مرة في تاريخ هذه المدينة العريقة في **التقاليد** نرى نساءها الباسلات يخرجن سافرات لجمع الإعانات من أهل الخير وتزيعها على أرامل وأيتام شهداء فلسطين الأبرار، وقد أكبرَ الرجال هذه الحركة متأثرين **بوطنيتهن**، وساهموا في مشروعهن بسخاء وطيب خاطر))[1].

إذاً: القضية قضية تقاليد ووطنة، وليست قضية إسلام.

ثم جيء بصورتهن فإذا بهن سافرات يلبس بعضهن الغترة والعقال**!!**

وكان القائم على المؤتمر هدى شعراوي وجمعيتها ((الاتحاد النسائي المصري)) فإذا عُرف السبب بطل العجب**!!**

الجهود الجليلة بدأت تؤتي أكلها:

كان لجهود الشيخ الكبير أحمد ياسين وإخوانه أكبر الأثر في مقاومة التفسُّخ والانحلال، ورد المذاهب الباطلة من شيوعية واشتراكية وناصرية وبعثية ويساريه عن فلسطين، ثم بعد ذلك صارت حركة الشيخ أعظم وأقوى قوة في فلسطين، وهي تَحكم اليوم، وهذا من فضل الله تعالى.

---

(3) انظر ص 38 وما بعدها من الكتاب.

(1) المصدر السابق: 281.

وقد بدأت الحركة تؤتي ثمارها منذ أواخر التسعينات الهجرية – السبعينات الميلادية من القرن الفائت، وكانت هناك تصريحات عديدة في فلسطين يثيرها اليهود ضد هذا الإسلام المتنامي، فمن تلك التصريحات العجيبة نفهم أثر حركة الشيخ أحمد ياسين في أوائل ظهور نتائجها على أرض فلسطين الطاهرة:

اعترف مسؤول يهودي كبير في سلطات الاحتلال اليهودي في مقابلة صحفية أجرتها صحيفة هآرتس اليهودية في عددها الصادر 1979/2/2 بأن هناك مزيداً من الدلائل تشير إلى تزايد المد الإسلامي الذي بدأ يظهر بين عرب (إسرائيل)- على حد تعبير المسؤول اليهودي – والذين يبلغ عددهم نصف مليون، وبين عرب الضفة الغربية وقطاع غزة الذين يبلغ عددهم حوالي مليون.

وقال المسؤول اليهودي: إن الذي يثير قلقنا هو أن مواقف العرب داخل (إسرائيل) بدأت تتحوّل من مواقف مبنية على قاعدة قومية إلى مواقف تستند إلى قواعد دينية، وإن الشباب العرب بدأوا يتحولون عن زعامتهم التقليدية إلى الزعامة الدينية التي يمثلها علماء الدين، وهم في غالبيتهم من الشباب الذين لا يستبعَد أن تكون لهم ارتباطات بحركة إسلامية متعصبة[1].

وفي ندوة عقدها أهم معهد أبحاث يهودي متخصص في رصد الشؤون العربية في يناير سنة 1979 ذكرت عدة نقاط أهمها: الاعتراف بوجود يقظة إسلامية حقيقية بدأت في الظهور بين عرب فلسطين المحتلة رغم كل الجهود

---

(1) ((عداء اليهود للحركة الإسلامية)): 60-61.

التي بذلها اليهود خلال الثلاثين عاماً الماضية لدمجهم في المجتمع اليهودي[2].

وفي 1979/2/19 اعتقل اليهود 12 عالماً في بيت المقدس معظمهم من الشباب، وذكرت وكالة الأنباء الفرنسية أن سلطات الاحتلال بدأت تبث رجالها في المساجد لرصد الشباب المسلم الذي يرتاد المساجد في صورة متزايدة[3].

ونقلت صحيفة القبس الكويتية في عددها الصادر في 1979/6/30 عن صحيفة ((فورتشن)) الأمريكية أن الصحوة الإسلامية تقلق أمريكا، وإسرائيل تتوقع جهاداً إسلامياً مقدساً لتحرير الأقصى، وجاء في المقالة أنه حتى في الجامعات العبرية في إسرائيل بدأ الطلاب العرب المسلمون يبدون اهتماماً متزايداً بالعودة إلى دينهم، وبدأوا يمارسون ضغوطاً على السلطات اليهودية للسماح بفتح كليات للثقافة الإسلامية والشريعة الإسلامية في الجامعات اليهودية، كما بدأ العديد منهم يطلقون لحاهم ويؤدون العبادات الإسلامية، في حين بدأت الفتيات المسلمات في ارتداء الزي الإسلامي الشرعي[1].

وهناك مقال لصحيفة هآرتس في 1979/7/13 قالت فيه تحت عنوان: الإسلام يعم قرى المثلث في (إسرائيل):

---

(2) المصدر السابق: 63-64.

(3) المصدر السابق: 70.

(1) المصدر السابق: 71.

إن سكان قرى المثلث لم يكونوا إلى ما قبل أشهر قليلة وعلى مدى الثلاثين عاماً الماضية لم يكونوا يكترثون أبداً أو يهتمون بيوم الجمعة، فقد كان يمضي كأي يوم آخر من أيام الأسبوع، أما الآن فقد أصبح ليوم الجمعة أهمية كبيرة، إذ ما إن يبدأ مؤذن المسجد برفع صوته بالأذان حتى يهرع جميع السكان إلى المسجد ليؤدوا الصلاة...

إن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية في المناطق التي يقطنها عرب في (إسرائيل) ليست متقصرة على القرى وحدها بل إنها تبرز في المدن أيضاً وخاصة في عطا، وإجمالاً فإن القطاع العربي من إسرائيل يعيش حالياً مرحلة العودة إلى الإسلام، فقد أخذ الجميع وخاصة الشباب يؤمون المساجد بعد أن كانوا يمضون وقتهم في المدن الكبرى والمقاهي والنوادي والاجتماعات الحزبية، وهذه ظاهرة لم تشهد الأقلية العربية لها مثيلاً من قبل[2].

وذكرت الصحيفة في العدد نفسه ((أن النشاط الإسلامي ليس مقصراً على (رجال الدين) وحدهم، بل إن الواعظات المسلمات لهن دور كبير في تزايد اليقضة الإسلامية بين عرب إسرائيل – على حد تعبيره – ففي قرية باقة الغربية، مثلاً، تلقي واعظة شابة تأتي من نابلس دروساً دينية كل يوم ثلاثاء أما نساء وفتيات القرية، وقد كان لهذه الدروس أثر كبير في عودة الكثيرات إلى الإسلام وامتلاء المساجد بهن في الأماكن المخصصة لهن))[1].

---

(2) المصدر السابق: 78-79.

(1) المصدر السابق: 83.

وذكرت مجلة الدستور اللندنية في عددها الصادر في 1981/2/23 أن الصهاينة يشعرون بقلق شديد إزاء تعاظم الشعور الإسلامي بين صفوف الشباب في فلسطين المحتلة عام 1948 والضفة الغربية وقطاع غزة[2].

وفي 6 مارس 1982 نشرت مجلة ((المجلة)) اللندنية تحقيقاً خاصاً عن انتشار التيار الإسلامي في فلسطين المحتلة، ونقلت تصريحاً لمستشار مناحيم بيچن للشؤون العربية قال فيه: ((إن الجماعة الإسلامية تلجأ إلى الإسلام لتوحيد عناصر المعارضة للوجود الإسرائيلي، وهذا شيء خطير))[3].

في 1982/1/31 نشرت صحفية الوطن الكويتية مقالاً مترجماً نشرته مجلة ((التايم)) الأمريكية عن ((تصاعد الروح الإسلامية في الضفة الغربية المحتلة، حيث أشارت ((التايم)) بأسلوب تحريضي سافر إلى أن علامات الانبعاث الإسلامي المتطرف في الجامعات والمعاهد في فلسطين المحتلة تتزايد بشكل ملحوظ، وأن المتطرفين المسلمين يتمتعون بتأييد واسع النطاق بين طلبة الجامعات والمعاهد.

إن معظم الطالبات في جامعة النجاح وغيرها من الجامعات والمعاهد في فلسطين المحتلة أصبحن يرتدين الملابس الإسلامية الطويلة، ويغطين رؤوسهن بالخمار الإسلامي))[4].

---

(2) المصدر السابق: 102.

(3) المصدر السابق: 107.

(4) المصدر السابق: 162.

هذا كان هو الأثر الباهر الذي كان نتيجة عمل دؤوب من الشيخ أحمد وإخوانه ومَن سار بعده.

أرأيتم إذا عظم هدف المرء كيف يُبدع ويفعل ما يشبه المُحال؟ وكما أنه إذا تدنّت أهدافه أصبح على هامش الحياة لا يؤبَه له ولا يُشعر أنه عاش في هذه الحياة أصلاً.

وهناك عاملون كثيرون يغيرون مسار التاريخ في الأمريكيتين، وأوروبا، وأستراليا، وأفريقيا، حيث يعملون ليل نهار، وفي ذهنهم أهداف عظام طمحوا إليها ونفّذوا كثيراً منها، وكثير من عجزة الثقات يرمقونهم ببرود، بل إن بعضهم يحاربونهم ويقفون في وجه أهدافهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذاً: ينبغي على كل عامل أن يضع نصف عينيه هدفاً عظيماً يحاول بكل جهده أن يصل إليه، والله الموفق.

انظر إلى صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله تعال – حيث جاهد الصليبيين جهاداً عظيماً متواصلاً، لكنّ هدفه كان أسمى من انتصارات وقتية أو إخراجِهم من بلاد الشام، هذا أحد أصحابه يحكي أنه كان سائراً معه من عسقلان إلى عكا ((وكان الزمان شتاءً عظيماً، والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى.

وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قائل: لو جُزت في البحر ميلاً واحداً ملّكتك الدنيا لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم، واستخففت رأي مَن لا يقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعِظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه.

فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال:

إنه متى يسّر الله – تعالى – فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت.

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، ولا أقوى نيّة منه في نصرة دين الله، وحكيت له ما خطر لي، ثم قلت: ما هذه إلا نيّة جميلة ولكن المولى يُسيّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفيتك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله.

فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَوِيّة ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها))[1].

أرأيت – أخي القارئ – ذلك الهدفَ العظيم الذي وضعه صلاح الدين – رحمه الله تعالى – لنفسه، وكيف كان يسعى لتحقيقه، فمَن وضع هدفاً لنفسه يقارب ذلك أو يماثله أتُراه يعجز أو يكل دون تحقيقه؟

وإذا كـــانت النفــوس كبـــاراً   تعبـت فـــي مرادها الأجســـام

محذور خطير:

---

(1) ((مختصر الروضتين)): 383.

ليحذر صاحب مشروع ترك الأثر النافع أن يضحك عليه الشيطان، ويصرفه عن استهداف الأثر العظيم بآخر مرجوح، وهذا يحدث لجملة كبيرة من الصالحين، فتراه عاملاً نشيطاً لكن لهدف صغير أو مرجوح بالنظر إلى قدراته وما يستطيعه، وأعرف أصحاباً لي كذلك شغلوا أنفسهم حيناً من الدهر ليس بالقصير في إتيان الأعمال المرجوحة، والانشغال بالأهداف الصغيرة التي يتمكن آخرون أقل مواهب منهم وقدرات من عملها بسهولة، وخطوات الشيطان في هذه الباب متعددة، فمنها:

أن يزين لمن يوسوس له من أصحاب المواهب المتميزة أن يشتغل بحاجات الفقراء والمساكين، فيظل ليله ونهاره في دوّامة من العمل والاجتهاد النافع لكنه في حقه مرجوح، إذ يمكن له أن يكون عالماً لحُسن حفظه وفهمه، أو أن يكون داعية للباقته وحصافته، إلى آخر ما يمكن له عمله من الأعمال التي تنفع المسلمين أكثر مما ينفعهم بعمله هذا.

أو أن يزين له أن يعمل بعمل وظيفي يستغرق ساعات نهاره، وإذا قيل له: غيِّر عملك هذا إلى عمل آخر أقل بساعتين أو ثلاث من عملك الطويل هذا، تردد طويلاً وخاف من التغيير والتبديل.

ولو كان عمله نافعاً للمسلمين على وجه يصعب على غيره أن ينفعهم به كنفعه لهان الأمر لكنك تجد من يتمسك بعمل إداري محض يقوم به آحاد الناس ولا يتطلب موهبة كموهبته التي رزقه الله إياها.

وبعض الموهوبين ممن عمل طويلاً حتى استحق التقاعد المبكر، إذا قيل له: تقاعد واعمل في مجال آخر يناسب موهبتك، سأل عن المال، فإذا بُيِّن له أن العمل الخيري سيتقاضى عليه أجراً يكمل له نقص راتبه بسبب التقاعد احتج بالأمن الوظيفي – أي أن العمل الخيري قد يُخرج منه في أي وقت – فسبحان الله كم يضيع على الناس من الأجور بسبب هذا التردد

والضعف في اتخاذ القرار، أو قل بسبب تسويل الشيطان لهم ووسوسته في نفوسهم.

وأنا أقول: إنه لا بد لكل صاحب تفكير في إحداث أثر عظيم في الناس أن يكون عمله مساعداً له على هذا كأن يكون يعمل في عمل خيري أو تربوي أو اجتماعي، أو على الأقل أن يكون عمله خفيفاً لا يستغرق منه وقتاً طويلاً، أو أن يستطيع أن ينجز في أثناء العمل شيئاً من الخطوات الموصلة إلى هدفه.

لكن تصور أن موظفاً صاحب إدراية يستقبل الجمهور فيها منذ بدئه العمل إلى نهايته لا يكاد يستطيع أن يتفرّغ ولو عشر دقائق لنفسه، بالله عليكم هل سينجز هذا شيئاً ذا بال؟! وهل سيترك الأثر العظيم المطلوب؟! أنا أشك كثيراً في استطاعته عمل شيء إلا أن يغير عمله هذا إلى عمل آخر، والله أعلم.

وكل عظماء التاريخ من مرسَلين وأنبياء ومؤثرين وفاعلين كان لهم من أوقاتهم قدر عظيم خاص بهم لا ينازعهم فيه غيرهم من الناس، وهم أضن بوقتهم من الأم برضيعها، لكن هذا لا يفهمه أكثر أصحاب المواهب اليوم الذين يظن فيهم أنهم يستطيعون عمل شيء عظيم في دنيا الناس.

ولذلك تجد أن مدرّس الجامعة الموهوب المربي الذي يحتك بطلابه ويوجههم ويرشدهم ويكون له فيهم أثر غير قليل يفرح إذا حُوِّل إلى رئيس قسم أو عميد، وحقه أن يُعزَّى.

وتجد أيضاً عدداً من أصحاب المواهب والقدرات قد يُرقون إلى مناصب تحجز عن الناس قدراتهم ومواهبهم، وتشغلهم إلى الحد الذي لا

يتمكنون معه من إنجاز عمل مكافئ لمواهبهم وقدراتهم، وفي هذا تضييع واستجابة لتزيين الشيطان.

ملحظ مهم:

لابدّ لصاحب الهدف العظيم أن يقرن هدفه دوماً بأمرين اثنين مهمين:

الأول: الشعور بالتحدي بينه وبين نفسه لبلوغ هدفه، وأنه مهما واجهه من مصاعب ومشكلات فإنه سيتغلب عليها بحول الله وقوته ليصل إلى مراده، وهذا الشعور مهم جداً للقفز فوق العقبات والحواجز، وبدونه ربما يئس المرء وانقطع، أو كَلّ وضعف عن بلوغ مراده.

الآخر: شيء من المخاطرة وقليل من المغامرة يمزجهما مع هدفه الذي يريد الوصول إليه، ولا بدّ له من هذا، أما إن قام يحسب ألف حساب لكل خطوة من خطواته، وكل حركة يريد إحداثها فإنه يضع العربة بنفسه أمام الحصان ولن يصل إلى شيء ملموس بسبب تخوفه وتوهمه، ولا أريد من كلامي هذا أن يصل المرء إلى درجة التهور لكن أريد أمراً وسطاً، بين بين.

يقول تيد تيرنر مؤسس شركة CNN:

((يجب أن تجرب دائماً وتخاطر وتغمر، لأنه ليس لديك سوى سنوات محدودة لتحقيق أحلامك)).

وتأثر تيرنر بقول هيلين كلير – التي سقت طرفاً من أخبارها في هذا الكتاب – عندما قالت:

((إما الحياة مغامرة يومية أو لا شيء)).

وكان يقول: إن الخوف من المخاطرة هو ما يجب أن يخافه كل إنسان.

وكان قد اتخذ منهجاً له من القول التالي:

إن المستثمر الذي لا يتخذ قراراً إلا عندما يتأكد من أن الإحصاءات ستتطابق مع وجهة نظره، والمستثمر الذي ينتظر الموافقة من السوق يحكم على نفسه بالفشل، وحياة تيرنر مليئة بالمخاطرات والمغامرات التي تستحق أن يُنظر فيها[1].

وكان يقول:

((إن أسعد لحظة في حياتي هي عندما يقول الناس: إن موضوعاً ما سيفشل وأثبت لهم العكس.

لقد عارضني الجميع في كل خطوة، ووافقني الجميع بعدما قمت بها))[2].

بمثل هذه الروح تتحقق الأهداف العظيمة ولا تبقى حبيسة العجز، أو رهينة التخوف والتباطؤ والضعف، والله أعلم.

***

الركن الرابع : العلم الواسع والثقافة المناسبة

---

(1) انظر ((حكايات كفاح)): 87-100.

(2) المصدر السابق: 98.

وهذا أمر مهم لكن لا بد أن يُفهم فهماً جيداً، وذلك أن المقصود بالعلم الواسع إنما هو ما يحتاجه الشخص في المجال الذي يعمل فيه، فالذي يريد أن يترك أثراً علمياً طبيعياً ضخماً فلا بد له أن يكون صاحب علم واسع في مجال تخصصه، فالفيزيائي لن يُحدث التغيير المطلوب إذا نقص عمله في الفيزياء، وكذلك صاحب الرياضيات والعلوم المختلفة، والطامع في أن يترك أثراً نافعاً في أعمال الخير والبر لابد أن يكون على دراية تامة بطرقها وأساليبها، والطامح في إحداث أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس لا بد له من معرفة واسعة بها وتجربة طويلة لها، وهكذا...

أما الثقافة فهي كلمة معاصرة، إذ لم يعرف العرب استعمال هاته الكملة على هذا النحو الذي تدل عليه اليوم، وإن كان للكلمة نوع اتصال بالمعنى اللغوي القديم[1].

وقد حار المفكرون في تعريف جامع للثقافة [2]، ولكن هناك تعريفات قريبة من واقع الكلمة، فمنها أنها: ((مجموعة من الصفات الخُلُقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته... والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيه))[3].

أو هي ((الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها، إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على

---

(1) انظر: ((لمحات في الثقافة الإسلامية)): 22-26.

(2) ((نحو ثقافة إسلامية أصلية)):17.

(3) ((الشخصية الناجحة)): 213.

التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار))[4].

ويقولون: ((تعلّم شيئاً عن كل شيء لتكون مثقفاً، وتعلّم كل شيء عن شيء لتكون عالماً))[5].

والثقافة ضرورة لمريدي التغيير الواسع لا غنى لهم عنها، سواء أكانت ثقافة إسلامية أم ثقافة إنسانية عالمية، وذلك حتى يتمكن المرء من معرفة واقعه على ماهو عليه من غير استهانة ولا مبالغة، وهاته المعرفة ضرورة لمواجهة مكر الأعداء وكيدهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، وهي ضرورة للداعية الراجي تقويمَ قومه وردهم إلى حظيرة الإسلام والاقتناع بشعائره وشريعته وتطبيقها في واقع الحياة.

وكم من الأشخاص في زماننا ممن يسمون دعاةً لا يستطيع الواحد منهم أن يتحدث الحديث الجيد المقنع عن الإسلام وشعائره وشرائعه، ولا يستطيع مجادلة أهل الضلال والشبهات، ولا يقدر على فهم واقعه على ماهو عليه، ولا يُظن بي المبالغة فهذا واقع في دنيا الناس، ولم آتِ بشيء – في هذا الكتاب – يُعد من الخيال أو التخرصات أو المبالغات – إن شاء الله تعالى – فكل ما ذكرته واقع مفتقر إلى معالجة جادّة، ولئن سألت أولئك: لماذا هم هم كذلك؟ لأجابوا: لأننا لا نعلم ولا ندري فنحن لا نقرأ، إذا هم رضوا بعجزهم بل بعضهم يفخر به بقوله: أنا لا أحب القراءة ولا أستطيعها.

وهذا إن لم يقرأ ليعلم ويدعوَ عن علم فمَن يقرأ إذاً؟!

---

(4) ((لمحات في الثقافة الإسلامية)): 13.

(5) ((نحو ثقافة إسلامية أصلية)): 18.

والمرء إن تخلّف وضعف في باب الثقافة فلم يتزود ولم يُحْنِ ظهره ويسهر ليله فمَن يتصدّر ويتحدث عن الإسلام؟! أيتحدث عنه الكفار، أو أعداؤه ممن جهلوه، أو عامة الضعاف الذين ليسوا مؤهَّلين في الأصل لهذا؟!

فكيف يطمع طامع في إحداث أثر كبير وتغيير نافع وهو محدود الثقافة لا يكاد يدري عن دنيا الناس الدراية التي تؤهله لضبط مسيرته، وفهم واقعه، ومعرفة موازين الناس، والمؤثرات التي تؤثر فيهم، والعوامل التي تُنهضهم أو تُقعدهم.

ولقد شاهدت في حياتي جملة من الصالحين العاملين إذا جلست إليهم وجاورتهم صدرت عن ضعف وهشاشة في ثقافتهم وفي فهم ما يدور حولهم وبالتالي تقويمه تقويماً حكيماً ومنصفاً، فأكثر الصالحين العاملين اليوم لا يعرف مزايا دينه معرفة تمكِّنه من محاورة الآخرين ليحاجهم بها، ولا يدري عن النظم السياسية إلا القليل الذي لا يغني، ولا يلم بجوانب الاقتصاد العالمي، والإعلام العالمي وتأثيرهما الواسع، ولم يطلع على التاريخ الإسلامي وتواريخ شعوب الأرض الاطلاع الذي يؤهله لاستقاء العبَر والعظات، ومعرفة السنن والقواعد، فكيف نرجو من أمثال هؤلاء أن يكون لهم سعي جيد لتحصيل الأثر النافع، ولو فرضنا أن لهم سعياً جيداً وعملاً قوياً لكنه يظل مبتوراً بسبب عجزهم عن فهم التاريخ والواقع الفهم الذي يمكنهم من إحكام الأعمال، وضبط المسيرة، ومن ثم الوصول إلى الأثر النافع الجليل.

فدونكم جماعة التبليغ، وهي جماعة نشطة عاملة، نفع الله بها، لكن قعد بها عن بلوغ الأثر النافع والتغيير الواسع قلة علم عدد كبير من أفرادها وضعف ثقافتهم ضعفاً لا يُغتفر في هذا الباب، لذا نجد أثرهم محدوداً إذا تحدّثنا عن الآثار الخوالد والأعمال الباقيات، وجماعة التبليغ مثال على سائر

الجماعات والهيئات والمؤسسات ممن نقص علمها أو ضعف ثقافة أفرادها إلى غاية لا تقبل.

وقد قطف اللادينيون والمحررون ثمار الأعمال العظيمة في العالم الإسلامي التي قامت لتخرج الاستخراب العالمي من أرضها، وقدّمت تضحيات هائلة، فجاء هؤلاء الرهط فقطفوا الثمار، وتولوا مقاليد الأعمال، وكانوا في كثير من البلاد الإسلامية أسوأ على أهلها من الاستخراب وأشد خطراً وأثراً، ولئن سألت عن السبب في هذا، وكيف استطاع هؤلاء أن يفعلوا هذا الفعل العجيب لكان الجواب هو نقص الوعي، وقلة الثقافة، وضعف العلم الذي كان متفشياً في الناس عامة وفيمن جاهدوا وأخرجوا الاستخراب من أرضهم خاصة، وهذه الآفات هي من الأمراض المؤثرة التي كانت قد أصابت أكثر العاملين لتحرير أوطانهم وخدعهم بها أصحاب اليسار واليمين، واستطاعوا أن يقصوهم بعد ذلك ويستلموا مقاليد الأمور.

هذه هي الأركان الأربعة التي أتيت على ذكرها، فإن اجتمعت للشخص، وساعده زمانه، وأسعفته أقداره، حقّق أمراً عظيماً جليلاً، وترك أثراً نافعاً كبيراً في دنيا الناس.

ولسائل أن يسأل: إذا تخلّف شيء من هذه الأركان أو ضعف هل يستطيع المرء أن يحقق شيئاً ذا بال، أو يترك أثراً ناتجاً عن عظائم الأعمال؟

وهذا هو موضوع المبحث القادم.

المبحث الخامس:

أثر فقد شيء من هذه الأركان أو ضعفها

مَن فقد واحداً من هذه الأركان أو ضعفت عنده فإن عمله لتحقيق الأثر العظيم في دنيا الناس يضعف تبعاً لذلك الفقد أو الضعف، وربما تلاشى العمل واضمحل والعياذ بالله.

لكن لا يعني هذا أن الشخص يستسلم ويترك العمل، لا، بل عليه أن يعمل لسد النقص وإصلاح الخلل في هذه الأركان، وليسارع في هذا حتى يستقيم له عمله، وينتج الأثر النافع المحمود.

أثر فَقْد أو ضعف الركن الأول: حُسن الصلة بالله:

وهو الركن الأعظم، فمَن فقده فقد عمله كله والعياذ بالله، أو فقد منه بمقدار ما فقد من الصلة بمولاه، وهناك أمور قد يُتسامح فيها في هذا الباب كنقص في التطوعات، أو كتفريط في بعض السنن، أو إتيان شيء من المكروهات، أو إلمام بأمور من الصغائر، أو حدوث شيء من الغفلة وترك للأذكار، لكن الذي لا يتسامح فيه أبداً هو النية والقصد، فمَن كانت نيته مدخولة مغشوشة لم يبارك الله له في عمله، وأراه سوء نتائجه عوضاً عن الأثر المحمود الذي كانت تطمع به نفسه المريضة، وأقرب مثال على هذا الجهاد الأفغاني الذي كان ملءَ السمع والبصر، وكان محط آمال المسلمين، ونشيدهم الذي يُنشدون، وطلبهم الذي يَنشدون، ثم إن الله تعالى طرد عنهم الروس الملاحدة، وأورثهم الأرض، وسهّل لهم استلام مقاليدها، وأسلس لهم

القياد، ومكّن لهم، حتى إذا دُخلت نية بعض قادتهم، وفارقها الإخلاص، وصار يضرب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً طمعاً في الرياسة، وتطلعاً إلى الدنيا، وكاد بعضهم بعضاً، تآمر بعضهم على بعض، حتى إذا صاروا كذلك سلّط الله عليهم مَن سلبهم ملكهم، وأذهب أثر جهادهم، وقوّض عملهم الطويل، وصاروا كالأطلال الدوارس، بعد أن كانوا أسوداً أشاوس، وذهبت مكانتهم من صدور الناس أدراج الرياح، وصارت أعراضهم كالكلأ المستباح، وحصل ما خاف من حصوله الصالحون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ژ ۀ ۀ ہ ہ ژ [1].

والدليل على أن النية قد فسدت، وأن الإخلاص قد خُدش بل مُزق، أن كثيراً من الصالحين من أهلهم ومن المسلمين من خارج بلادهم ومن داخلها راجعوهم، وكلموهم، وحذروهم، وذكّروهم بالله لكن آذان أكثرهم كان قد أصمّها حب الدنيا والتعلق بالرئاسة، فأصرُّوا على اللجاج والخصومة، وهناك حَلّت بهم سنّة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل، فجرى ما جرى، مما يحسن الإقلال من ذكره وأن يُطوى ولا يروى، والحمد لله على كل حال.

وكم سمعنا من أعمال خير عملها أسخاص ثم إنها لم تمكث في الأرض إلا كمكثهم أو أقل.

وكم سمعنا من أعمال عظيمة عُمِلَت ثم طواها النسيان، وأصبحت أثراً بعد عين، وماءً في غِرْبال، ومثال ذلك: الاتحاد السوڤييتي الهالك، فقد أنشأه رجال كان لهم الهدف العظيم والعلم الواسع، والصفات الشخصية الجيدة، لكن

---

(1) سورة البروج: آية 12.

انظروا لما افقدوا الركن الأول وهو الصلة بالله تعالى كيف أهلك الله دولتهم وأذهب عملهم فصار كأمس الذاهب لا قيمة له، وطواه النسيان حتى أن الأجيال التي أتت بعد ذهاب دولتهم لم تعد تعرفهم ولا تذكرهم، والحمدلله رب العالمين.

أثر الكبائر في محق الآثار

ومن الأمور الدالة على ضعف الصلة بالله ومن ثم ضعف العمل وأثره هو خلط العمل بالمعاصي الكبائر، والاستهانة بهذا الأمر والإقدام عليه، وكم من الناس من سعى في الأرض سعياً حثيثاً، وضرب فها يميناً ويساراً سنوات طويلة وترك سعيه هذا وضربه ذلك في الأرض آثاراً ربما تكون ملء السمع والبصر، لكنها آثار ناقصة لم تكتمل، ولم يبارك الله تعالى فيها، فهي كالمولود الخِداج الناقص الذي يظل يعذب أهله طويلاً وربما في النهاية لا يمكث في الأرض، أو إن يعش عاش ناقصاً ضعيفاً لا يصلح للأعمال الجليلة العظيمة.

ويحضرني لهذا مثال من عصرنا مهم، يدل دلالة واضحة على ما أريد، ألا وهو ((البنك العربي)) وإنشاؤه ليكون نواة لاقتصاد مستقل في زمن الاستخراب العالمي، وكان كما أراد له صاحبه أن يكون، وفتحت له فروع في أماكن شتى، وانتشر في البلاد العربية لكنه لقيامه على الربا، وعدم رضا

صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامي – على أنه قد مُحض له النصح في هذا – ظل تأثيره ناقصاً، وصار عمله خداجاً، وإليكم القصة: قصة إنشائه ومن ثم عدم رضا صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامي، وقد حكى قصته الأستاذ توفيق الشاوي[1] الذي قابل مؤسسه عبدالحميد شومان [2] في المغرب وقص عليه خبر كفاحه في إنشاء المصرف، ومن ثم ما جرى من إلحاح الأستاذ الشاوي عليه بتحويله إلى مصرف إسلامي واستغراب الرجل من الفكرة ورفضه لها، وإليكم ما قاله الأستاذ توفيق واصفاً العلاقة بين عبدالحميد شومان ومحمد طلعت حرب[1] وناقلاً لقصة تأسيس ((البنك العربي)):

((لم يكن لي الحظ في لقاء طلعت حرب أو الحديث معه ولكني سعدت بلقاء المرحوم عبد الحميد شومان لأول مرة في الرباط عاصمة المغرب الأقصى في منزل صديقه المرحوم الشيخ منصور قدارة الذي كان سفير ليبيا

---

(1) أحد القانونيين الإسلاميين، وأحد من قام مشروع المصارف الإسلامية على أكتافهم، وكان له عمل متصل دائب في الجزائر قبل وأثناء وبعد ثورتها، وكان له جهود في المغرب العربي، وفي المملكة العربية السعودية مع ملكها فيصل رحمه الله، وله عدد من المؤلفات في القانون والاقتصاد والسياسة وهو الآن في القاهرة يصارع المرض بعد فالج نزل به عافاه الله.

(2) وُلِدَ بقرية بيت جنينة قرب المقدس سنة 1307 ونشأ بها يعمل في تكسير الحجارة، وذهب إلى أمريكا فعمل بائعاً متجولاً، ثم افتتح محلاً 18 عاماً، ثم عاد إلى القدس وأنشأ ((البنك العربي)) وله 50 فرعاً في الدول العربية وغيرها، توفي بمدينة براغ في تشيكوسلوفاكيا سنة 1394 ونقل إلى القدس ليدفن بها. انظر: ((الأعلام)): 286/3.

(1) محمد طلعت باشا بن حسن بن محمد حرب زعيم مصر الاقتصادي، وُلِدَ بالقاهرة سنة 1293، وذكر أن أصله من قبائل حرب بالحجاز، تخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، وعين مترجماً فمديراً لبعض الشركات، ثم أنشأ شركة التعاون المالي ثم دعا إلى إنشاء بنك مصري فعورض لكنه دأب إلى أن نجحت دعوته فأنشأ ((بنك مصر)) وألحق به فروعاً وشركات ضخمة كان معظمها من نتاج تفكيره وجهده، ولم تحسن مكافأته في آخر أيامه، وهو كاتب باحث له عدة كتب ورسائل دافع في بعضها عن الحجاب، وكان من أعضاء الجمعية الجغرافية، توفي بالقاهرة سنة 1360 رحمه الله تعالى، ((الأعلام)): 175/6، 176.

في المغرب في عام 1960، وروى لي قصة كفاحه وحياته، وعرفت منه حقيقة لا يعلمها كثيرون، وهي أن فكرة إنشاء البنك العربي كانت ثمرة لاتصاله بطلعت حرب وإعجابه به.

قال شومان:

((خرجت من القدس، من جوار المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، متوجهاً إلى ((نيويورك)) وليس معي شيء من المال، لقد أقرضني بعض أقاربي ثمن تذكرة السفر إلى إمريكا بالدرجة الرابعة على ظهر السفينة لأبحث عن عمل.

سافرت وليس معي من سلاح للكفاح في ميدان الحياة سوى الاعتماد على نفسي، فاعتمدت أولاً على ذراعي هاتين – وأشار بهما إلى أعلى – لأنني لم أدخل مدرسة ولم أحمل شهادة.

بدأت حياتي الجديدة في نيويورك، عاملاً بيدي، فمارست جميع الأعمال، من أعمال البناء إلى العمل في المصانع حتى استقر بي المطاف في مصنع للنسيج كان يملكه أمريكي من أصل إيرلندي، لقد قربني إليه أنه كان يملكه أمريكي من أصل إيرلندي، لقد قربني إليه أنه كان يكره الاستعمار البريطاني، بل كان يكره الاستعمار الصهيوني، ويعتبره أخطر من الاستعمار البريطاني، إنه كان يحسدنا نحن العرب في فلسطين؛ لأننا نرفض الصهيونية ونقاومها، إنه كان يقول: إن هذه ميزة لنا على جميع شعوب العالم التي لم تشعر بهذا الخطر، وفي مقدمتها أمريكا التي يقول: إنها خرجت من السيطرة البريطانية لتقع فريسة للسيطرة الصهيونية، إنه كان يقول لي : ((أنتم أحسن حظاً منا في هذه البلاد العظيمة؛ لأنكم ترفضون السيطرة اليهودية وتقاومونها؛ ولذلك سيكون لديكم أمل في التحرر من أطماعها، أما هنا

فالشعب لا يحس بالقيود التي فرضتها عليه الصهيونية، فلا أمل له في التحرر منها طالما أنه يستسلم لها ولا يكفر في مقاومتها)).

منذ بدأت حياتي في أمريكا لم أنس قط أهلي ووطني وخاصة أولئك الذين ساعدوني في السفر وقدموا لي ما يمكنني من دفع ثمن التذكرة في الباخرة، وتعهدوا برعاية أهلي حتى أعود لهم، لقد جعلت أمامي هدفاً لا أحول عنه، هو أن أعود إلى فلسطين لأسدد ديوني، وأرد الجميل للذين قدموا لي مساعداتهم.

كنت أدخر من أجري كل ما أستطيع أن أوفره، حتى تجمع لي قدر لا بأس به من المال، فعرضت على صاحب مصنع النسيج أن أشاركه فرحب بذلك ، واتسع المصنع وتضاعفت أرباحه، ثم عرضت عليه بعد ذلك أن أشتريه كله، فباع لي نصيبه.

كنت أعيش على غذاء نباتي، وقد رفضت تناول اللحم منذ أخبرني من أثق فيه بأن ((النصارى)) لا يذبحون، فحرمت لحومهم على نفسي، ثم حرمت جميع اللحوم واقتصرت على الغذاء النباتي بعد أن تأكدت أنه أصح لبدني، وسأبقى على هذا المبدأ ما حييت إن شاء الله.

كان بعض زملائي المهاجرين إلى أمريكا يأخذون علي ذلك، ويعجبون منه، وظن بعضهم أنني أفعله من باب الاقتصاد في النفقات، ولا يفهمون أن من طبعي دائماً أن أرسم طريق حياتي وعملي بإرادتي وحدها، وعندما أقرر أمراً لا أقبل التراجع فيه لأي عذر من الأعذار، وهذا هو شأني بالنسبة للتدخين، فأنا لم أدخن قط، ولن أدخن، وعندما أنشأت ((البنك العربي)) التزمت بمبدأ ألا يعمل معي فيه من يدخن، وبذلك أعطيت لغير المدخنيين فرصة أوسع للعمل، وميزة لا تتوفر لمن يستسلمون للتدخين، هذا هو مبدئي.

أذكر أنني توجهت مرة إلى طبيب للعيون في نيويورك، فأصر على أنه يلزمني عمل نظارات، وعملتها فعلاً وذهبت بها إلى غرفتي، وعندما وضعتها على عيني ونظرت إلى وجهي في المرآة، وجدتها لا تعجبني، وأدركت أنني لن أصبر على حملها كلما أردت السير، فألقيت بها من النافذة، ولم أقبل أن أضع نظارة منذ ذلك اليوم، وقد مضى على ذلك ما يزيد على أربعين عاماً، وعيناي تكفياني، ولا أحتاج لنظارات، وسأبقى كذلك طول حياتي، كما أنني لم أشرب الخمر، ولا أحب رؤية من يتعاطاها أمامي.

ولم يعجبني سلوك كثير من المهاجرين، الذين نسوا خصال مجتمعهم العربي في أوطانهم، واندمجوا في المجتمع الجديد بكل ما فيه من صفات وسيئات وخاصة شرب الخمر؛ ولذلك كنت أتجنبهم وأبتعد عنهم كان أكثرهم من نصارى لبنان، ولقد حدث أن التقيت بأربعة منهم، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، ودعوني إلى طعام وشراب فرفضت، وسألوني عن السبب، وفهم بعضهم من حديثي أن الخمر نجس، وأن اللحم غير المذبوح حرام على المسلمين، وأحسوا باستعلائي عليهم، فبدرت من أحدهم إهانة للإسلام والمسلمين، فهجمت عليه ولكمته على وجهه لكمتين، ففر زملاؤه، وفر هو كذلك هارباً، ولم أرهم بعد ذلك، إنني أعتز بإسلامي ولا أتسامح مع من يهاجمه أو يجرحه)).

كان محدثي طويل القامة عالي الهامة، وعندما وصل في حديثه إلى تلك المشادة بينه وبين ((النصارى)) واللكمات التي كالها لأحدهم على وجهه لم يكتف بالتعبير عن ذلك بكلامه، بل فوجئت به يضرب بلكمتيه يميناً ويساراً، ومن حسن حظي أن مرت اللكمات من فوق رأسي قبل أن أفكر في تفاديها.

لقد كانت هوايته ورياضته المفضلة هي المشي على الأقدام، وكان يمشي وحده ساعات طويلة، إذا لم يجد من يرافقه من أصدقائه، وقد عرفني به صديقنا السيد منصور قدارة سفير ليبيا في المغرب آنذاك، وقد استراح لصحبتي وأعجبت بشخصيته، وعندما دعاني للخروج معه لنتمشى حذرني منصور قدارة بقوله: ((اعمل حسابك على ساعتين، مشياً على الأقدام، فإن الرئيس لا يمشي أقل من ذلك)).

بعد أن ابتعدنا عن مدينة الرباط، تركنا السيارة ومشينا على أقدامنا في طريق ((الرماني))، وقد نسيت تعب المشي، وأنا استمع إلى حديثه عن حياته وكفاحه من أجل إنشاء ((البنك العربي)).

((بعد بضع سنوات من العمل والكفاح في أمريكا بدأت أفكر في العودة إلى فلسطين الحبيبة، وهزني الشوق لأهلي وأحبابي بالقدس الشريف، وأرضه الغالية، وقعدت أحسب ما ادخرته من كسب يدي وأرباح تجارتي، وأفكر في المشروعات التي يمكن أن أبدأها في فلسطين عندما أعود إليها.

ذهبت لزيارة أحد العرب في أمريكا، وكان معه عدد من المهاجرين يتحدثون عن أخبار فلسطين والعالم العربي، وسمعت حواراً بينهم بشأن رجل ظهر في مصر سمى ((طلعت حرب)) دعا إلى إنشاء ((بنك مصر))، وفهمت من الحوار أن مشروعه في طريق النجاح والنمو المصري وطبقاته، وإن العرب يستبشرون بذلك؛ لأنه أنشأ أول بنك في العالم تستعمل فيه اللغة العربية وحدها في كل أعماله ووثائقه وحساباته، وأكثر من ذلك فإنه لا يعمل فيه أجنبي واحد، بل كل العاملين به من المصريين، ولقد كانت الأحاديث التي سمعتها تعبر عن حماس الجميع لهذا المشروع المصري العربي.

ورغم أنني لم أشترك في الحوار إلا أنني تأثرت به إلى درجة جعلت هذا الموضوع يشغل ذهني طول الليل، وخطر لي أنني لا بدّ من أن أرى

طلعت حرب بمجرد عودتي لفلسطين وأتحدث معه، وأشترك معه في هذا البنك بالمال الذي أحمله معي من أمريكا، وفكرت في أن أبعث له برسالة.

إنني لم أتعلم القراءة والكتابة باي لغة، وكان ذلك من أشد العقبات التي واجهتني في حياتي، ولو سردت لك بعضاً من هذه الصعوبات لكنت في حاجة لأيام وساعات طويلة، ولكني والحمد لله استطعت أن أشق طريقي في الحياة وأصبح مؤسساً ورئيس مجلس إدارة البنك العربي العملاق، وأنا أمي لا أقرأ ولا أكتب، ورغم إلحاح كثير من أصدقائي فإنني لم أجد الوقت الكافي لأبدأ في تعلم القراءة والكتابة.

قررت أن أعود لمنزل صديقي الذي اجتمعنا به بالأمس ليكتب لي الخطاب، وقد أعجب الرجل بفكرتي، وأثناء حواري معه خطر لي خاطر أكثر جرأة، فطلبت منه أن يكتب أنني عازم على العودة إلى القدس الشريف لإنشاء بنك مماثل لبنك مصر، وأنني أرجو أن يشترك معي بنك مصر في تاسيسه حتى نستفيد من خبرة إخواننا المصريين ومعاونتهم، واقترحت أن يكون اسمه بنك ((مصر فلسطين)) أو ((البنك المصري العربي)).

تحمس الكاتب نفسه للفكرة، وأضاف في الخطاب أن كثيرين من العرب المقيمين في أمريكا مستعدون للمساهمة في هذا المشروع، وهم يعقدون آمالاً كبيرة على إجابته على هذا الخطاب ليبدؤوا في إجراءات التأسيس بالتعاون مع بنك مصر ورجاله)).

توقف محدثي عن الكلام فقلت له متلهفاً: وهل أجاب طلعت حرب على هذا الخطاب؟

((نعم ... وكني قضيت ليالي طويلة أترقب هذا الجواب، وأنا بين اليأس والرجاء، تراودني الشكوك في وصول خطابي إلى مصر واطلاع

رئيس بنك مصر عليه واهتمامه به ورده عليه، ولا أستطيع أن أصف لك سروري عندما تسلمت رده على خطابي، والذي زادني سروراً أن الإجابة كانت مشجعة، وأن الرجل رحب بالفكرة وقال: إنه يتمنى أن ينشأ في كل بلد عربي مثل هذا البنك، وأن فلسطين هي أقرب بلد عربي لبلادنا وقلوبنا، فهي جديرة بأن تكون البادئة، وإنه مسرور أكثر؛ لأن المقيمين في امريكا من العرب أو المهاجرين إليها ما زالوا يفكرون في مصالح بلادهم ويتابعون أخبارها... إلخ.

لم أضيع وقتاً كثيراً في تصفية جميع أعمالي في أمريكا، والاستعداد للرحيل عنها عائداً إلى القدس سعيداً بأنني وجدت الفكرة التي تجعل عودتي لبلادي بداية الجهاد من أجل شعبنا العربي في ميدان يحتكره للآن أعداؤنا ويتخذون هذا الاحتكار وسيلة لاستغلال بلادنا واستعباد أمتنا والقضاء على مقومات شعوبنا ومجتمعاتنا.

حملت معي عناوين جميع أصدقائي من العرب الذين يقيمون في أمريكا بصفة دائمة أو مؤقتة، الذين وعدوني بالمساهمة في تأسيس البنك المصري العربي الذي سيكون أول امتداد لنبك مصر الذي أنشأه طلعت حرب، وأول بنك عربي خارج مصر يولد في حجر مؤسس بنك مصر وينشأ في رعايته وحضانته، وودعني أصدقائي عند سفري على أنني ذاهب إلى القاهرة لمقابلة طلعت حرب نيابة عنهم وباسمهم، وأن القدس الحبيبة ستكون محطة في طريقي إلى مصر العزيزة.

كان أول ما فعلته في القدس عقب وصولي إليها ولقائي مع أهلي وأصحابي أن أعلنت لهم المشروع الذي عدت من أجله وطلبت منهم أن يستعدوا للمساهمة فيه، وأن يدعوا كل من يعرفونه لذلك، وأضفت من عندي أن طلعت حرب – أبو الاقتصاد المصري ومنشئ بنك مصر - سيكون

رئيس هذا النبك وراعيه، وزدت بأن أعلنت لهم أننا اتفقنا مع طلعت حرب على كل شيء بما في ذلك اسم البنك الذي سيربط بين شعب مصر وشعب فلسطين ... إلخ.

وفي نفس الوقت بعثت برسالة عاجلة إلى طلعت حرب بنفس العنوان الذي أرسلت علي الخطاب السابق، وشرحت له فيه ما يلقاه المشروع من تأييد حماسي لدى جميع من علم به من أهل فلسطين سواء منهم المقيمون في أمريكا أو على أرض فلسطين الحبيبة، وانتظرت الجواب كما انتظرت جواب خطابي السابق. ولكنني كنت واثقاً من الإجابة، ولم تساورني الشكوك التي ساورتني عندما كنت انتظر جواب الخطاب الأول، فضلاً عن أن المقابلات والاجتماعات مع معارفي وأصدقائي الراغبين في المساهمة في النبك شغلتني عن كل شيء، إلا عن الفتكير في برنامج أول زيارة يقوم بها طلعت حرب إلى بلادنا لاتخاذ الخطوات النهائية للتأسيس.

جاء الجواب متأخراً أكثر مما كنت أتوقع، وفوجئت به، ولا أريد أن أصف لك شعوري عندما قرأت عبارات الأسف التي أبداها طلعت حرب في خطابه؛ لأنه لا يستطيع أن يفي بما وعد به من قبل؛ لأن مجلس إدارة بنك مصر يرى أن البنك المصري ما زال وليداً ناشئاً وليس لديه من الإمكانيات ليسهم في أي مشروع آخر خارج مصر؛ ولكنه مع ذلك يتمنى لنا النجاح في المشروع معتمدين على أنفسنا في حدود استطاعتنا، والله المعين .. وهو المستعان)).

وصل تأثر شومان أقصاه عندما وصل إلى هذه النقطة، ووقف كأنه يلهث أو يسترد أنفاسه بعد جهد كبير لينسى الساعات الأليمة التي مرت به بعد وصول هذا الخطاب، وكان أكثر ما قاساه هو ما لقيه من انصراف الكثيرين ممن تحمسوا للمشروع ووعدوا بالمساهمة فيه، ولم يثبت معه إلا

أقاربه وبعض المخلصين من أصدقائه مجاملة له، وكأنهم يئسوا من نجاح المشروع.

قلت له كأنما أعزيه، وأنا أشير إلى السيارة لنعود بها من حيث جئنا بعد هذا المشوار الطويل: لا بدّ أن نعود، فوافق مسرعاً كأنما يفر من ذكرى تلك الأيام التي مر بها، وسرنا إليها صامتين، وأنا لا أجرؤ على توجيه أي سؤال جديد خشية أن يزيد ألمه.

وفي طريق العودة وقفنا بالسيارة على شاطىء ((وادي الرقراق)) ذلك النهر الواسع الذي يحتضن مدينة الرباط، ثم وضع يده فوق كتفي كأنما يريد أن يتكىء عليها، وقال لي وهو ينظر إلى مياه النهر الهادئة الجامدة كأنها دموع قد تحجرت:

((إن طلعت حرب كان المثل الذي أقتدي به، رغم أنه خذلني، وتركني أعتمد على نفسي في السنوات القليلة التي مرت بعد هذا الخطاب، كنت غارقاً في مشاكل البنك وقضاياه، ولم يكن لي إلا هدف واحد: هو أن ينجح مشروعنا، وأن أبعث برسالة إلى طلعت حرب ليحضر لزيارتنا في القدس.

وكنت مع ذلك أتتبع أخبار مصر وبنك مصر، وأخبار طلعت حرب، وعلمت منها أن الرجل لم يخلف وعده الذي بعثه لي باختياره؛ ولكنه لقى معارضة عنيفة في مجلس الإدارة، وأن الذي كان يقود المعارضة ويحمل رايتها مجموعة من اليهود أمثال داود عدس وشيكوريل وأعوانهم الذين تسللوا إلى مجلس الإدارة بحكم الأسهم التي حصلوا عليها باعتبارهم مصريين.

وكانت حجتهم أنهم شاركوا في بنك مصر على أساس أنه بنك ((وطني مصري)) وأن الوطنية المصرية هي التي كانت سبب نجاحه؛ ولذلك فلا يجوز المغامرة به في نشاط خارج حدود مصر.

ولم أدهش بعد ذلك عندما علمت أن هذه المجموعة اليهودية قد تآمرت لإخراج طلعت حرب من البنك الذي أنشأه وكان بالنسبة له حياته وأمله، وأن أحد رؤساء الوزارات المصرية هو الذي نفذ هذه المؤامرة وأخرج طلعت حرب من بنك مصر في بداية الحرب العالمية الثانية، ومات – رحمه الله – دون أن ينال من حكومة مصر ما كان يستحقه من تكريم يتناسب مع ما كان شعب مصر يكنه له من تقدير واعتراف بالجميل.

ولكن شعب مصر ما زال يعتبره أبا الاقتصاد المصري، وبطلاً خالداً من أكبر أبطال تاريخه الحديث،أما العرب جميعاً فإنهم سيذكرونه دائماً باعتباره أول من أنشأ بنكاً عربي اللغة فوسع مجال الوطنية لتكون عربية لا محلية، وسيبقى طلعت حرب نموذجاً خالداً للرجال الذين يستطيعون أن يحاولوا أفكارهم إلى مشروعات حية تنمو وتفرض نفسها على واقع المجتمع ومصيره.

وبالنسبة لي خاصة، لقد كان لي قدوة وإماماً، وسوف أذكره بكل خير ما حييت؛ لأن البنك العربي الذي أنشأناه في ((القدس الشريف)) كان امتداداً لبنك مصر الذي أنشأه طلعت حرب في القاهرة))[1] .

هذه قصة مؤثرة لكنها تدل دلالة واضحة أن الإنسان إذا لم يجتهد في ضبط عمله بموجب الشريعة فإن أثر هذا العمل يكون ناقصاً ضعيفاً، وربما

---

(1) ((اقتصاد المستقبل)): 3-14.

انقلب وبالاً عليه، وإليكم نصح الأستاذ توفيق له بأن يأخذ بالمعاملات الإسلامية في مصرفه لكنه تنصّل وتمحك:

((قبل مغادرة ألمانيا فكرت في عرض الأمر على السيد/عبدالحميد شومان وكنت أعرف أنه يقضي الصيف في سويسرا، فاتصلت به في منزله بمدينة ((زيورخ)) والتقيت معه في البنك السويسري الذي يملكه ((البنك العربي)) في سويسرا ليكون قاعدة لعملياته في الخارج، وهناك عرضت عليه الفكرة، وذكرته بأحاديثنا السابقة، فقال: إن أول شيء يمكن عمله هو أن أقدمك لمدير البنك وهو محام سويسري يمكنك أن تتفاهم معه وتستمع لرأيه، وفعلاً التقيت بالرجل في مكتبه وتحدثت معه فأبدى بعض الملاحظات من ناحية الصياغة، لكنه قال: إن ما يتعلق بدور البنك في هذا الموضوع أمر تختص به إدارة البنك العربي في مقره الرئيسي، ولما عدت لشومان قال لي: إنه شخصياً لم يعد رئيس مجلس الإدارة، وإنما يتولى هذا المنصب ابنه الأكبر، ووعد بأن يقدمني له أثناء زيارة قادمة سوف يقوم بها للرياض حدد لي موعدها ودعاني للاتصال به في الفندق الذي سينزل فيه.

وفي نهاية اللقاء قال لي شومان: إنني أريد دعوتك للغداء معي؛ ولكنني كما تعرف نباتي، وهنا مطعم نباتي في المدينة أتردد عليه، فإذا لم يكن لديك اعتراض لنذهب معاً، وسرنا على أقدامنا، مشواراً طويلاً كالعادة حتى وصلنا للمطعم الذي يفضله، وتغذينا، وخلال هذه الفترة سمعت منه قصة شرائه لهذا البنك الذي كان يملكه بعض المؤسسات المالية في أمريكا الجنوبية، وأنه سارع لشرائه ليقوم من خلاله بالعمليات الخاصة بالبنك العربي في أوروبا؛ ولذلك فإنه يتعامل بالفائدة ولم يفكر قط في الخروج على هذا المبدأ، كما أنه لا يتوقع أن يجترىء أحد من البنوك القائمة فعلاً على الخروج عنه؛ لأن القوانين المصرفية والمدنية والتجارية في جميع أنحاء

العالم تفرض التعامل بالفائدة، ونحن عندما أنشأنا البنك العربي كان هدفنا أن ندخل في الأوساط المصرفية والمالية، لا أن نخرج منها أو نخرج عليها.

قلت له : معنى ذلك أنك لا ترى أن يكون للبنك العربي دور في إنشاء هذه المؤسسة التي لا تتعامل بالفائدة إذا احتجنا إلى بنك قائم فعلاً في القيام بإجراءات التأسيس في إحدى البلاد التي نختارها.

قال: إنه شخصياً لا يميل إلى أن يكون للبنك العربي إي طابع يخرج به عن نطاق العمل المصرفي العالمي حالياً، لكن الأمر على كل حال من شأن مجلس إدارة البنك العربي والقائمين عليه أما هو فليس له الحق في اتخاذ قرار في هذا الصدد، وعليّ أن أقنع رئيس مجلس الإدارة في لقائنا القادم معه في الرياض، ولا شك أنه سيعرض الأمر على مستشاريه وعلى مجلس الإدارة...))0

((ولما عدت إلى الرياض التقيت ثانية مع السيد/ قصر صحارى الذي كنت أنزل فيه فعلاً، وعرفني بابنه الأكبر رئيس مجلس إدارة البنك العربي.

وشرحت له الفكرة وأعطيت له المسودة، وطلب موعداً لكي يتخذ قراره بعد الرجوع إلى مستشاريه وزملائه. وقبل أن يغادر شومان التقيت به مرة ثانية، والتقيت مع ابنه الذي رد إليّ أوراقي آسفاً ومعتذراً؛ لأن زملائه لا يرون من المناسب أن يغادر البنك العربي في هذا المجال.

قلت لعبد الحميد شومان وأنا أودعه: لقد كنت عاتباً على طلعت حرب لأنه لم يستطع أن يرتبط معك في إنشاء بنك خارج مصر بسبب معارضة مجلس الإدارة وأظن أننا الآن أصبحنا ((خالصين)) واحدة بواحدة، فإن موقفكم لا يختلف كثيراً عن موقف طلعت حرب والفارق الوحيد هو أن مستشاريه وأعضاء مجلس إدارته الذين حالوا دون موافقة البنك على

المشروع كانوا من اليهود أما أعضاء مجلس إدارتك ومستشاريك الذين حالوا دون الموافقة على هذا المشروع فإنهم لم يكونوا يهوداً، بل كانوا عرباً ومسلمين فيما أعتقد!!

وكان معي أحد أصدقائي، فبعد أن ودعنا السيد شومان وأصحابه ونحن في طريقنا إلى الفندق قال لي: إنك نسيت شيئاً وهو أن أغلبية مجلس إدارة بنك مصر الذين رفضوا مشروع البنك المصري العربي لم يكونوا يهودا، وإنما كانوا عرباً ومسلمين ولكنهم كانوا متأثرين برأي الأقلية اليهودية سواء كان ذلك عن خوف أو طمع وكانوا يخشون اليهود المسيطرين على سوق المال خارج البنك وليس فقط الأقلية اليهودية في مجلس الإدراة، والآن ما زال هذا هو الوضع في مجلس إدارة البنك العربي لأنهم لا يخشون اليهود وإنما يخشون المسيطرين على الدوائر المصرفية والمالية العالمية الذين لا يقبلون بسهولة وجود مشروع يخرج عن دائرة التعامل بالفائدة التي هي أساس التعامل المالي والمصرفي في العالم كله))(1).

هذه هي قصة ((البنك العربي)) وقد أغنانا الله عنه بعشرات المصارف والمؤسسات المالية التي تقوم على أساس إسلامي وتنبذ الربا، ولله الحمد.

وقد أطلت في هذا الركن الأول – حسن الصلة بالله تعالى - لكن كانت هذه الإطالة مهمة في تعميق هذا الأمر في النفوس، وتثبيته في عقل وقلب كل من يطمح بعمل عظيم ينتج أثراً رائعاً جليلاً باقياً.

---

(1) المصدر السابق: 120-124.

أما الأركان الثلاثة الأخرى ففقد واحد منها مضعِف لا شك لكنه ليس بشرط في أصل العمل النافع والأثر الجيد لكنه شرط في كمال هذا الأثر وعظمه.

فمَن افتقد بعض الصفات النفسية الجيدة أو ضعفت عنده ضعف عمله وأثره بمقدار ما فقد منها أو ضعف محصوله منها.

ومَن ضعف هدفه أو كان محدوداً ضعف أثر عمله ولا شك، فمَن كان هدفه هداية أهل حي ليس كمَن هدفه هداية كثير من أهل المدينة أو الدولة، ومَن كان هدفه الوقوف في وجه الكافرين وصد كيدهم ومكرهم ليس كمن هدفه إسكات عدو محلي أو شانيء في حيه أو بلده، ومَن كان هدفه بناء مسجد ليس كمن هدفه بناء ألف، وهكذا فإن الهدف كلما عظم زاد الجهد والعمل والموصل إليه، وربما وضع الشخص لنفسه هدفاً عظيماً فتحقق منه نصفه أو ربعه لكن هذا النصف أو الربع أمر عظيم،

ومَن قلّ علمه أو ضعفت ثقافته وتوافر له قدر جيد م الصفات والأحوال المتضمنة في الأركان الثلاثة الأخرى ربما حصل له من الأثر لعلمه ما يعوض فقده لهذا الشيء أو عدم جودته عنده.

ولقد رأينا أشخاصاً حققوا بحسن نيتهم، وعظم صلتهم بالله تعلى – وهذا هو الركن الأول من الأركان التي ذكرتها – وعظيم إحساسهم بحال الأمة شيئاً كبيراً غطّى على فقدهم عددا من الصفات والخصائص التي تضمنتها الأركان الأخرى.

لكن يبقى لكل من أراد أن يكون إماماً، وأن يكون أثره عظيماً نافعاً باقياً في الأجيال أن يتوافر له حد أدنى معقول من هذه الأركان الأربعة

المذكورة، ثم إن الناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً بعد ذلك بمقدار ما تتفاوت هذه الأركان الأربعة فيهم.

ولتوضيح ذلك فإني سأضرب مصلاً على تفاوت الأثر المتروك بتفاوت الخصائص والصفات المتضمنة في الأركان الأربعة السابقة الذكر، وسأسوق جملة من فقهاء مذهب ما وليكن المذهب الشافعي مثلاً، وانظروا إلى التفاوت:

فهناك الإمام الشافعي، وقَلّ في الدنيا مَن لم يسمع به[1] .

وهناك الإمام الغزالي[2]، وقَلّ في الدنيا من لم يسمع به أيضاً.

وهناك الإمام النووي [3]، وقلّ في الدنيا مَن لم يسمع به أيضاً، وإن كانت شهرة الإمامين الغزالي النووي أقلّ وأثرهما في المذهب أقلّ أيضاً، وهؤلاء الأئمة الثلاثة يمثلون طبقة أولى في المذهب الشافعي في الشهرة والتأثير.

وهناك طبقة أخرى أقل في شهرتها وتأثيرها، فمنها تقي الدين السبكي[4].

---

(1) محمد بن إدريس الإمام، توفي سنة 204 بمصر رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في ((سير أعلام النبلاء)): 5/10 وما بعدها.

(2) محمد بن الغزالي، توفي بطوس – إيران اليوم سنة 505 رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في سير اعلام النبلاء: 322/19 وما بعدها.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) علي بن عبدالكافي السبكي، أصله من مصر وسكن الشام، وتولى قضاءها. توفي بمصر سنة 756 رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصّلة في ((الدرر الكامنة)): 134/3-142.

وهناك طبقة أقلّ في شهرتها وأثرها، منها: ابن سُرَيْج [5] وإن وصف بالتجديد والرملي[6].

وهناك طبقات بين هذه الطبقات أسماؤها لا تحصى ولا تُعد.

وعندما أقسم هذه الطبقات فإني أقسمها على أساس الشهرة والتأثير لا المُكنة العلمية حتى لا يتعرض معترض ويدقق مدقق.

وأنا موقن – والعلم عند الله تعالى – أن اختلاف هؤلاء عائد إلى نقص أو كمال في الأركان الأربعة المذكورة.

ومَن اطلع على ترجمة الإمام النووي على سبيل المثال، يدرك ما اريد، ويعلم ما أرمي إليه من كلامي، فقد كانت صلته بالله تعالى عجيبة من ورع ظاهر ذكر الناس فيه بورع السلف، وزهد تام في الدنيا، وإقبال على الله تعالى، ونسيان حظ النفس.

وكانت عنده صفات شخصية عالية جداً لا أعلم له فيها نظيراً، ومن قوة وصدع بالحق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصبر عجيب.

وكان عمله واسعاً، ومعرفته بحال عصره وأشخاصه ووقائعه مناسبة.

---

(5) هو أحمد بن عمر، أبو العباس البغدادي، الإمام المشهور المتوفى سنة 306، وقيل عنه إنه مجدّد المائة الثالثة ،انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء: 201/14 وما بعدها.

(6) شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملي المنوفي المصري الأنصاري الشهير بالشافعي الصغير، المتوفى سنة 1004، وقد ذهب جماعة من العلماء أنه مجدّد المائة العاشرة. انظر ترجمته في ((خلاصة الأثر)): 342/3-348.

وكان هدفه عظيماً منقسماً بين التأليف النافع جداً الذي يندر في التصانيف مثله قوة وشمولاً ونفعاً وتأثيراً، وبين رعاية مصالح الناس وتفقد شؤونهم، وبين تهذيب النفس والوصول بها إلى درجة قريبة من الكمال.

فلا جرم إذا أن كان النووي إحدى الشخصيات العظيمة المؤثرة في التاريخ آثاراً نافعة لا زالت باقية إلى اليوم، ولن تزول إلا إذا زالت الدنيا، إن شاء الله تعالى.

ولا جرم أن كان الإمام النووي هو إحدى الشخصيات القليلة على مدار التاريخ الإسلامي التي اجتمعت كلمة الناس في الثناء عليها، والرضا بحالها، من الموافقين لمذهبه، ومن المخالفين له فيه، ومن السالكين نهجه، ومن السالكين طرائق أخرى، لا أعلم أن أحداً من الناس طعن عليه طعناً مؤثراً باقياً، وهذا من أعجب العجب.

والناظر لكتبه يعلم هذا؛ إذ ليس هو بالفقيه الشافعي الأول فهناك مَن هو أفقه منه لكن كتبه الفقهية ظلّت مراجع على مدار الزمان.

وليس هو في الطبقة الأولى من المحدثين لكن كتبه الحديثية بقيت في الأرض، وما شرحه لصحيح مسلم منا ببعيد، وغير ذلك من الكتب التي يعرفها المتخصصون كأصل تدريب الراوي وغيره، لكن أعجب كتاب له على الإطلاق ((الأربعون النووية)) التي حفظها الملايين، بل أقول مطمئناً: فحظها مئات الملايين من عصر المصنف إلى الآن، وهذا شيء قَلّ أن يتكرر في الدنيا لأحد.

وليس هو من المشهورين بالوعظ، لكن كتابَيه ((رياض الصالحين))و ((الأذكار)) هما أخلد الكتب في هذا الباب وأعجبها، سواء في أصل الوضع أو الشهرة والتأثير والانتشار الواسع جداً.

ولـه كتب أخرى ذائعة الصيت منتشرة بين العوام والخواص منها: ((التبيان في آداب حملة القرآن))، و ((بستان العارفين)) إلخ ...

إذاً: هذا المثال يبين بوضوح ما أريده من أن عظم تأصُّل الأركان الأربعة في نفس شخص يعود على عمله بأعظم العوائد، ويترك له أثراً في الأرض لا يتخيله أحد.

المبحث السادس:

العوائق التي تقف حوائل

دون تحقيق الأثر المطلوب

هناك عوائق عديدة تقف حوائل دون الوصول إلى أن يحقق المرء أثراً في دنياه، لكن الذكي البطل الموفّق هو الذي يتجاوز تلك العوائق، ويقفز الحواجز، ويدور حول العقبات حتى لا يستسلم وقد كان له سبيل يسلكها.

هوي جملة من العوائق تتلخص في الآتي:

عقبة المجتمع:

ذلك أن مجتمعاتنا العربية الإسلامية فيها عدة عيوب قد تصرف طالب العمل العظيم عن وجهته، وتذهب به بعيداً عن هدفه، وقد تحبطه وتؤيسه، وقد تؤذيه وتقعده، فمن تلك العقبات:

الترف المُقْعِد في عدد من الدول العربية والإسلامية الذي يصيب المجتمع بالترهل والضعف والتراخي، فيصبح الباحث عن المعالي في هذا المجتمع كباحث عن إبرة فقدها وسط كومة من القش.

ضيق سُبل العيش على كثير من الناس – في أكثر الدول العربية والإسلامية – بسبب الفقر المدقع أو بسبب سوء الحالة الأمنية وضعفها، إذ يكون أكثر الناس آنئذ مشغولين بتحصيل عيشهم أو نيل أمنهم.

الفساد الإداري أو ما يسمونه ((الروتين)) أو ((البيروقراطية)) وهو من أشد العوائق صعوبة أمام طالبي الأعمال العظيمة؛ إذ توضع أمامهم العقبات والحواجز التي لا تكاد تنتهي.

قلة الوعي عند جماهير الناس مما يقف حائلاً دون تفهمهم الفوائد الجليلة للأعمال العظيمة بل قد يقفون حائلاً دون تحقيقها.

المشكلات الداخلية التي تحيط بالمرء من زوج مزعجة، أو أولاد عاقين، أو أهل متعبين، إلخ ...

وجود عدد ممن يسوؤهم العمل الصالح النافع من اللادينيين، والمتحررين من الشريعة، والفاسدين، وهؤلاء قد يكونون من صفوة المجتمع الذي بيده مقاليد الأمور، وهنا تكون المصيبة الواقعة على مريد الأعمال العظيمة أشد وأنكى.

الحسد والغيرة التي يواجهها طالب الأعمال العظيمة من أقرانه، وربما يصل الأمر إلى الإيذاء.

العقبات الشخصية:

وقد يكون في طالب العمل العظيم عقبات في شخصه تمنعه من الوصول لمراده من جبن، أو خور، أو ضعف في البنية أو التصور والإدراك، أو أنه لم يؤتَ حظاً كبيراً من الذكاء والفهم، أو أنه كثير التردد، ضعيف العزم، أو يؤثر السلامة ويطلب العافية، أو غير ذلك من الصفات والخصائص المقعدة.

وقد تحدثت عن أضدادها في المبحث الثاني لكني سأورد جملة من الصفات الشخصية المقعدة للمرء عن بلوغ المعالي، ولا بد له من معالجتها إن أراد إحداث الغيير المنشود(1):

التواضع الكاذب:

وأعني به ذلك الانكسار الدائم في شخصية المرء، فتجده يعتذر دائماً بأنه ضعيف لا يستطيع تحمُّل المسؤولية، أو هو أقل مما يؤمل منه، أو أن الآخرين خُدعوا به حيث ظنوا فيه خيراً (2)، أوَلم يعلم أن قليله كثير عند الآخرين، وما يظنه من نفسه إنما هو بخلاف ما وهبه الله من قدرات مكنونة في نفسه ينتظرها ويرجو خيرها سائر المسلمين؟

---

(1) نقلت هذه الصفات السلبية من كتابي ((عجز الثقات)) لأهمية إيرادها في هذا السياق ومناسبتها له وأضفت عليها إضافات كثيرة.

(2) كنت قد أشرت في كتاب ((التنازع والتوازن في حياة المسلم)) إلى مسألة التصدر قبل أوان التأهل وناقشتها، فيجمع بينها وبين ما هنا.

والعجيب أن مثل هذا المنكفئ المنكسر يرى من هو أقل منه علماً وفقهاً يتصدر ويُسمع قوله وهو ما زال متردداً متعللاً متوانياً.

والخطر في هذا الخلق الذميم أن صاحبه قد يعتاد استعظام الأمور حتى إن كانت يسيرة، فينتهي به الأمر إلى القعود والعجز الكلي، والعياذ بالله.

ومن كانت هذه حالة فإن لا يرجى له أن يتجاوز عثار عجزه هذا إلا أن يعزم عزماً أكيداً على تجاوز هذا الخلق الذميم ينافي الإقدام والجرأة والاستجابة للمعالي وغير ذلك من الصفات المطلوبة في المرء المسلم.

قال الشاعر:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

التحسس ورهف المشاعر:

إن الشخصية اللطيفة الحس، المستقيمة في تصوراتها وعواطفها لهي الشخصية المطلوبة الجيدة حقاً، أما إن طغت عليها عواطفها، وأصبحت في غاية التحسس والرقة فإن في ذلك فسادَها وذهاب قوتها وتميزها، ولا يعود يستطاع التبسط في الحديث مع من شأنه كذلك، إذ هو يحمل الكلام على محاملَ كثيرة، ويؤوّل تأويلات لا يتحملها الكلام بل لم تخطر على بال المتكلم أصلاً، ويصير ذلك الشخص متأثراً بالأحداث حوله إلى الغاية التي تنفر أقرب الناس إليه من حاله وصفته.

وهذا كله مدخل كبير إلى عجز ذلك المتحسس عجزاً كبيراً، لا يستطيع الخلطة مع الناس على وجه مرضي، ولا الناس يرغبون في لقائه

والمكث معه وهو كذلك، فينتهي به الأمر إلى العزلة والانقطاع، ومن ثم العجز التام عن المشاركة في الإصلاح والدعوة إليه.

ولقد عرفت رجالاً كان هذا شأنهم الذي سطرته آنفاً، وهم يعيشون الآن على هامش الحياة بسبب غلبة عواطفهم عليهم وعدم استطاعتهم التحكم فيها والاستفادة منها، ولوقوفهم الدائم عند صغائر الأمور التي لا يُلقي أكثر الناس لها بالاً.

وعلاج أولئك عسير عسير، وما لم يوفقهم الله – تعالى – فإنه لا يُرجى له البرءُ من مرضهم هذا، حيث إنه قد نشأ لديهم منذ الصغر – غالباً – واعتادوا عليه وطُبعوا به فلا انفكاك لهم عنه إلا أن يشاء الله – تعالى - أمراً آخر، وقد يحتاج صاحب هذا الخلق أن يتردد على طبيب بارع في معالجة علل النفوس حتى يتخلص من بعض أعراض مرضه هذا، والله الموفق.

جـ- الكسل:

وهو صفة مستحكمة في كثير من الخلق، تدعوهم إلى القعود عن المعالي والفضائل، والرضى بالدون من كل شيء.

والكسل أكثر منشئه من الترف والدَّعة، والتبسُّط إلى الدنيا، والعَبّ من شهواتها وملاذّها، وعدم الالتفات إلى ما يخالف ذلك أو نُنقص عليه.

والكسل مؤدَّ إلى العجز ولا بد، حيث إنه يمنع المرء من الخروج من منزله وحيِّه لغرض الإصلاح والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يمنع المرء من الحركة إلى المساجد وطلب العلم، بل قد يمنعه من الحركة في بيته لتربية أولاده ومراقبتهم، ومَن كان حاله كذلك فهو العاجز عجزاً كلياً، نسأل الله السلامة والعافية.

((والكسل آفه النجاح، وهو وباء فتّاك يفتك بكل من يصيبه فيجعله عاجزاً عن تحمُّل مسؤولياته كإنسان، وفاشلاً في تكوين مستقبله ككيان مستقل، ومنهزماً أمام تحديات الحياة ... ولقد اعتبر الإسلام الكسل صفة ذميمة، فلقد ذمّ الله عزّ وجل الكسالى في كتابه المجيد، قال تعالى: ﮋ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮊ[1]، وقد كان الرسول ﷺ يتعوّذ من الكسل ... فعن أنس رضي الله عنه كان النبي ﷺ يقول:

((اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل))[2].

وقال علي رضي الله تعالى عنه:

((التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهَلَكَة، ومَن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد)).

وقال بعض الحكماء:

الحركة بركة، والتواني هَلَكة، والكسل شؤم[1].

وإياك ((وإيثارَ الخفض والدَعَة، والميل إلى الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة ... ودع الضجر والكسل وحب العاجلة فإنها من أخلاق البهائم ...))[2].

---

(1) سورة التوبة: الآية 54.

(2) صحيح البخاري: كتاب الدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال.

(1) ((الشخصية الناجحة)): 60-62، وقد نقل المصنف قول علي رضي الله عنه من ((المستطرف)): 127/2.

وقد كان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري [3] رحمه الله تعلى ((يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكِبَر والمرض، فقيل له في ذلك، فقال: يا ولدي، النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك))[4].

وينبغي أن يعالَج الكسل لئلا يؤدي إلى الفتور ((وهو داء يصيب العاملين يؤدي في أسوأ أحواله إلى الانقطاع بعد الاستمرار، وفي أحسن أحواله يظهر السكون والكسل والتراخي والتباطؤ بعد الحركة، وورود الفتور أمر عارض يجب ألا يُسلم له ... فالداعية إن كانت له فترة فلتكن استراحة مقاتل يعود بعدها إلى العطاء والجهاد، قال النبي ﷺ في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما:

((لكل عمل شِرّة [1]، ولكل شِرّة فَتْرة [2]، فمَن كانت فترته إلى سنّتي فقد أفلح، ومَن كانت إلى غير ذلك فقد هلك))[3].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

---

(2) ((البصائر والذخائر)): 2/7-8.

(3) زكريا بن محمد زكريا الأنصاري، أحد علماء القرن العاشر، وممن رزق حظاً عظيماً في التصنيف وكثرة الطلبة، تولى القضاء في مصر، وما ت فيها سنة 926 بعد أن عمر زيادة عن مائة سنة. انظر أخباره في ((الكواكب السائرة)): 1/196-207.

(4) المصدر السابق: 1/202.

(1) النشاط والرغبة، وشرة الشباب أوله ونشاطه، وانظر ((الترغيب والترهيب)): 1/87.

(2) الفترة: الانقطاع.

(3) قال الإمام المنذري: رواه ابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه، انظر ((الترغيب والترهيب)): 1/87، وقد صحح الحديث الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، كما في ((العوائق)): 9.

((فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمَن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم تُخرجه من فرض ولم تُدخله في محرم رُجي له أن يعود خيراً مما كان مع أن العبادة المحببة إلى الله سبحانه هي ما دام العبد عليها))[4].

د- السآمة والمل:

إن الله تبارك وتعالى وضع سنناً تسيِّر هذا الكون وتحكمه، وهي سنن حكيمة لها حد تنتهي إليه بعلم الله، تبارك وتعالى، فمن هذه السنن أن الفساد الناجم عن طول معاشرة الناس للمنكرات واستمرائهم لها لا يزول إلا بإصلاح تدريجي قد يطول فيستغرق أجيالاً، أو يقصر ليتحقق في الجيل نفسه لكن بعد سنوات طويلة، والناظر في التاريخ الإسلامي بل تاريخ النبوات والمصلحين منذ آدم – عليه الصلاة والسلام – يرى ذلك واضحاً جلياً لا يحتاج إلى برهان.

والمتصدُّون لهذا الإصلاح لابد أن يوقنوا بذلك، ويوطِّنوا أنفسهم على بذلك الأوقات الغالية على مدى أزمان طويلة متتالية – قد تبلغ ثلاثين أو أربعين سنة أو أكثر – حتى يستقيم له طائفة معتبرة من الناس على منهج الله تبارك وتعالى.

فإن جاء أناس تعجّلوا وظنوا أنهم قد يختصرون زمان الإصلاح إلى سنوات قليلة معدودة فهؤلاء لم يفقهوا تلك السُنّة ولم يفهموها حقّ الفهم، وعملهم هذا مبتدَع، حيث لا سباق لهم في ظنهم هذا، ولا يستطيعون الإتيان بدليل على ما ذهبوا إليه.

---

(4) ((الفتور)): 15-16. ونسب المصنف كلام ابن القيم إلى ((مدارج السالكين)): 126/3.

ثم إن وضح لتلك الطائفة خطأ ما ذهبوا إليه وتعجّلوه ارتدّ أكثرهم على أعقباهم يائسين من الإصلاح، راغبين عنه، زاهدين فيه، قد علمتهم السآمة والملل، واعتراهم الكلال والضعف، فيصبحون عاجزين مثبطين، مُحبَطين مُحبِطين.

وهذا خلاف منهج الأنبياء العظام الذين يبذلوا جهوداً كبيرة لمدة طويلة بلا يأس ولا ملل، وأوضح مثال على هذا هو نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، قد واصل ((جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه بلا مصلحة له ولا منفعة، ويحتمل في سبيل هذه الغاية ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد... ولا يمل، ولا يفتر، ولا ييأس أمام الإعراض والإصرار... حاول أن يسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ومتنوع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عاماً...))[1] .

وقد تكون السآمة – المؤدية للعجز – ناشئة عن نفس ملولة سَئِمة متقلبة، لا تستقر على أمر، ولا ترضى بالثبات على حال واحدة مُرْضية زماناً طويلاً، أو تكون ناشئة عن مزاجية في العمل فما رغب فيه عمله وما رغب عنه تركه، أو تكون ناشئة عن إحباط، فقد يعمل الشخص طلباً لمنصب أو تحقيقاً لغرض، فإن لم يدركه أصابته السآمة وترك العمل.

هـ- الانقباض وضيق العَطَن[1]:

---

(1) ((في ظلال القرآن)): 6/3712-3715 بتصرف.

(1) ضيق العطن: قلة الصبر، وقلة الحيلة عند الشدائد.

نفوس المصلحين لا بد أن تكون رحبة، بعيدة عن العسر، قريبة من الناس، تُؤْثر الخلطة المفيدة، وتُشعر الناس جميعاً أنهم قريبون منها على الدوام، أما إن كان الثقات عسرين، منقبضين، ضيقي العَطَن، راغبين عن الناس، مؤثرين العزلة غير المفيدة ولا المنضبطة بضوابط الشرع المطهر فإنهم سيكونون عاجزين كل العجز عن إصلاح المجتمع والتأثير الإيجابي فيه، ولن يُحتاج إلى أحدهم إلا اضطراراً وبقدر، وعدا عن ذلك فإنهم سيكونون منعزلين ما لم تشتد حاجة الناس إليهم، كحاجة السابقين إلى الأعمش[2] رحمه الله تعالى.

قال النبي ﷺ :

((المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف))[3] .

وهذا الانقباض عن الناس يحيل المرء إلى أن يكون عاجزاً لا يستطيع إصلاحاً ولا يقدر عليه، بل لا يرغب فيه.

ولله در الشافعي حيث يقول لتلميذه:

((الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط))[1].

---

(2) سليمان بن مهران، أحد الأئمة الحفاظ، وكان من العسرين في الرواية، الذين يضيقون بالناس ويؤثرون اعتزالهم، وله في ذلك حكايات عجيبة. انظر سيرته في ((سير أعلام النبلاء)): 226/6 وما بعدها.

(3) قال الحافظ الهيثمي رحمه الله تعالى : ((رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد)). انظر ((مجمع الزوائد)): 277/10.

(1) ((نزهة الفضلاء)): 742/2.

و- اليأس

اليأس نقيض الحياة، وهو الموت المبكر، وذلك لأن اليائس قد أظلمت الدنيا في وجهه قبل ظلمة القبور، ومات الأمل في نفسه وذهنه وقلبه قبل موت أعضائه، فهو في الدنيا حساً لكنه معدود في عالم الأموات الذي يشمل أصنافاً كثيرة منها من خرجت روحه وفارق الدنيا، ومنها اليائس، ومنها الكافر، ومنها الضال عن منهج الله، إذ حياة أولئك أشبه بموتهم، والعياذ بالله تعالى.

واليائس عاجز عاجز، لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً، لا لأنه مسجون أو مقهور بل لأنه قد سجن نفسه بتصوره أن لا فائدة من الإصلاح ولا رجاء في الخلق، ولا خير عند الناس.

والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لم ييأسوا، بل دعوا إلى الله تعالى بعزم وجد سنوات طويلة، وبعضهم دعا قروناً كنوح عليه السلام، وقد كانت حصيلة الدعوة ضئيلة في بعض الأحيان كما أخبر النبي ﷺ : ((يأتي النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد))[1] .

وقد أخبر الله تعالى عن نوح بعد أن دعا ألف سنة تقريباً أنه ژ ڈ ڈ ڈ
ژ ژ ژ[2] .

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الطب: باب من كوى أو كوى غيره.

(2) سورة هود، الآية 40.

و((من المؤثرات النفسية التي يواجهها الدعاة ويستشعرون بها، ويجدون الكثير ممن يُحسبون على الإسلام يتشدقون بها ويرفعون لواءها المؤثر التيئيسيّ الانعزاليّ الذي يُقعدهم عن مسؤولية الدعوة، ويثبطهم عن فرضية الجهاد، ويدفعهم إلى عزلة المجتمع والركون إلى الاسترخاء والانطوائية... وهذه الظاهرة من التيئيس والتثبيط إذا استفحلت في أمة وترسخت في نفسية الدعاة فإنها – في الحقيقة – القاصمة التي تقصم مسيرة العمل الإسلامي، والحالقة التي تحلق التفاؤل بالنصر، فلم يبقَ لإقامة العزة الإسلامية في النفوس رجاء، ولم يعد لاستعادة الأمجاد التاريخية أمل))[3] .

وإليكم أيها القراء الكرام أمثلة على أناس نفوا من حياتهم اليأس تماماً، وقد أوردتها كلها من حياة كفار نصارى أو ملحدين، لأقول: إن كان هذا حالهم فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن المسلمين!! وأول الأمثلة قادة الاتحاد السوفيتي الهالك الذي دمره الله تعالى وجعله عبرة للمعتبرين: كيف صنعوا، وماذا قدموا؟ وأبدأ بمؤسس دولتهم وأول حكامهم: لينين، فقد نُفي إلى سيبيريا سنة 1897 وعمره 27 سنة، وقبل ذلك شهد محاكمة أخيه الذي حكم عليه بالإعدام شنقاً لمحاولته قتل القيصر، ثم تنقل في أوروبا سنوات في إصرار عجيب ليحقق الذي يدعو إليه من الشيوعية الملحدة، ثم عاد إلى روسيا، وصدر أمر بإلقاء القبض عليه بتهمة العمالة للألمان فهرب إلى فنلندا حيث كتب أهم كتاب له، ثم عاد بعد شهور ليتولى قيادة الاتحاد السوفيتي الناشىء ثم تعرض لمحاولة اغتيال فتأثر بها ليموت بعد سنوات قليلة. وزميله تروتسكي هو مُنظِّر الثورة على القيصر، وهو كذلك قد تعرض لمحن عديدة لكنه لم ييئس، فقد اعتقل سنتين وعمره ثمانية عشر عاماً، ثم نفي إلى سيبيريا

---

(3) ((عقبات في طريق الدعاة)): 222.

لمدة 4 سنوات بدون محاكمة، فهرب من سيبيريا بعد سنتين، وتنقل في أوروبا، ثم عاد إلى روسيا لينفى مرة أخرى إلى سيبيريا ثم هرب منها أيضاً إلى أوروبا الغربية، ثم طرد من فرنسا فلجأ إلى أمريكا ثم عاد إلى روسيا حيث سجن، ثم قام الاتحاد السوفيتي فتولى فيه مناصب، ثم بعد وفاة لينين تعرض لعدة محن في عهد ستالين، وهرب إلى أوروبا ومنها إلى المكسيك ليقتل هنالك سنة 1940.

أرأيتم معشر القراء إلى هذا العمل المتصل وعدم اليأس إلى أن قامت دولتهم البائدة، وحضارتهم الزائفة، وإلحادهم المقبور، وكفرهم المشهور [1] وعملهم هذا يصح أن يضرب – في أصله – مثلاً للمتخاذلين منا، القاعدين، الذين قنعوا من الصلاح بشعائر التعبد وتركوا شرائع التقرب بالعمل المتواصل والجد والاجتهاد.

وهذه الأمريكية هيلين كيلر التي وُلِدت عام 1880، تعرضت وعمرها ثمانية عشر شهراً فقط لمرض أفقدها النظر والسمع والنطق!! فأخذت تستخدم الإرشادات للتفاهم مع من حولها. ثم عينت لها أسرتها مدرسة خاصة قامت على تعليمها القراءة بطريقة ((بريل)).

ثم هل تعلمون كيف تعلمت: كانت تفهم الأصوات وتميزها عن طريق لمس حنجرة المدرسة وتحسس الذبذبات الصوتية بطريقة اللمس، ثم التحقت بكلية مكثت فيها أربع سنوات حيث كانت مدرستها تترجم لها المحاضرات بطريقة لمس باطن كفها!! ثم تخرجت في الكلية ووهبت باقي عمرها لمساعدة المعاقين، ثم أصبحت أديبة مؤلفة، لها عدة كتب، فسبحان الله كيف تغلبت على عجزها التام بإصرار عجيب وعن طريق لمس الجدران

---

(1) من موقع للإنترنت.

والحناجر استطاعت أن تميز الأشياء والأصوات، بل الأعجب أنها صارت أديبة مؤلفة[1]!!

وهذا الكولونيل ساندرز وصل عمره إلى الخامسة والستين، وكان فقيراً معدماً، لكنه بدأ في هذا العمر بإنشاء مطعم ارتقى ليكون سلسلة مطاعم ((كنتكي)) المشهورة، وسافر في سبيل تثبيت مطاعمه في 92 دولة قرابة ثلاثين عاماً ليتابع بنفسه امبراطورية الدجاج التي أنشأها بمثابرة عجيبة ولم يعرف اليأس قط[2].

وهذا الياباني سيكيرو هوندا صاحب مصانع هوندا المشهورة، قد وُلِدَ في عائلة فقيرة جداً، وكان أبوه حداداً يصلح الدراجات الهوائية على الطريق، فتعلم من والده وتعلق بالدراجات ثم ارتقى وجد واجتهد ليكون بعد ذلك صاحب مصانع هوندا الشهيرة وسجل باسمه أكثر من 470 ابتكاراً وأكثر من 150 براءة اختراع، وكان قد ابتدأ بدخول عالم التصنيع بإنشائه مصنعاً صغيراً لكن الحرب العالمية الثانية دمرت هذا المصنع، وأصبح مُعدماً تماماً كما بدأ، لكنه لم ييئس، وهداه تفكيره إلى إنشاء الدراجات النارية ثم ارتقى مرة أخرى في عالم الصناعة، وله مقولة مهمة تدل على عزمه وتصميمه وعدم يأسه واستفادته من فشله وإخفاقه:

((عندما أنظر إلى الوراء أحس بأنني لم أحصد سوى أخطاء سلسلة من الأعمال الفاشلة والكثير من الندم!! غير أنني في المقابل فخور بما حققته، وعلى الرغم من أنني قمت بالكثير من الأخطاء واحداً تلو الآخر لكن ليس

---

(1) ((عظماء ومشاهير معاقون)): 252-256 بتصرف.

(2) ((حكايات كفاح)): 204-214.

هناك خطأ أو فشل تكرر مرتين، لذلك أؤكد لكم أن النجاح يمثل 1% من عملنا الذي ينتج عن 99% من فشلنا))، وله أخبار كثيرة وأعمال عجيبة دالة على عزمه وتصميمه وعدم يأسه[1] .

أرأيتم معشر القراء كيف نفى أولئك الأشخاص اليأس من حياتهم فحصلوا على نتائج ضخمة، ونحن المسلمين – وخاصة الدعاة والعاملين – أولى منهم بهذه المثابرة وانعدام اليأس، وديننا العظيم يأمرنا بنفي اليأس واستقبال الحياة بالعمل والجد والمثابرة والاجتهاد.

ومن العجائب التي تستحق الاعتبار في مثال لينين وتروتسكي وأضرابهما أنهم أقدموا على الموت وهم لا يعتقدون موتاً ولا نشوراً، ولا يؤمنون بخالق أصلاً، وهذا عندي من أعجب العجب فلنعتبر به ولنتعظ ولنعمل أكثر مما عمل أولئك فنحن نعتقد بالعبث والجزء.

ز- الخوف:

وهو داء قتّال، إن أصيب به المرء ضعف ضعفاً عظيماً، وخارت قواه، ووهت عزيمته؛ إذ من شروط طالبي ترك الأثر في دنيا الناس أن يكونوا متوكلين على الله تبارك وتعالى في شؤونهم كلها، والخائف ليس متوكلاً، إذ هو يخاف من مجهول المستقبل على نفسه، أو ماله أو عياله، أو وظيفته، فيصبح في هاجس دائم وخوف مستمر قد يملك عليه أرجاء نفسه فينسحب من جنة الدنيا إلى صحرائها، ومن نعيم التوكل إلى جحيم القلق،

---

(1) المصدر السابق: 222 – 231 بتصرف.

فينتهي به الحال إلى عجز مطلق مستمر، وذل دائم – والعياذ بالله – لا يزول إلا بزواله ولا ينتهي إلا بنهايته.

إن الناظر إلى تاركي الأثر العظيم في دنياهم قديماً وحديثاً ممن نصبوا أنفسهم للإصلاح والتغيير لا يكاد يجد فيهم خائفاً خوفاً مؤدياً به إلى الانقطاع والعجز، إنما قد تعتري أحدَهم وساوس ينفيها بقوة توكله وعظيم إيمانه، وكان الله تعالى معه: (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى)[1] .

وهذا الخوف يعظم حال الفتن والمصائب، لكنها ((سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العَنَت والألم والشدة والضر، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم استحقوا الجنة، لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدَعَة والرخاء، فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة، وأرفع ما تكون عن عالم الطين:(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين امنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب*[2]))[3].

ح- الغموض:

---

(1) سورة طه: آية 68.

(2) سورة البقرة، الآية 214.

(3) ((طريق الدعوة)): 351-352.

هو هالة تحيط بالمرء فلا يعود يُعرف ماذا يريد، ولا ما هي أهدافه، ولا يستطيع المرء معرفة أو تحديد طريقة حياة ذلك الشخص أو كيف يفكر، وقد ينشأ هذا الغموض من ظرف نفسي خالط ذلك الثقة فغمض حاله وجُهل فصار يؤثر العزلة والانقباض مثلاً، أو قد ينشأ هذا الغموض من سبب خارجي عنه كهيئة أو خلقة أو لباسٍ غريب عن مجتمعه، أو كل ذلك جميعاً.

والغموض الملازم للشخص مؤدٍّ به إلى العجز ولا ريب، إذ سيتجنبه الناس فلا يخالطونه، ويخافونه ويحذرونه، ولا يوادّونه، فيجب على من ابتلي بهاته الصفة أن يسارع إلى التخلص منها قدر المستطاع حتى يعود مشاركاً للناس في حياتهم على الوجه الذي يكفل دعوتهم وإصلاحهم.

ط- التردد:

وهو من الأسباب الموصلة للعجز، وذلك لأن المتردد قلّما يعزم على أمر، وإذا عزم على إبرام أمر فإنه قلّما يمضيه، فيظلّ يراوح مكانه، وتأتيه الفرصة تلو الفرصة وهو عاجز عن اقتناصها، بل هو مشغول عن الجديدة بالتحسر على تردده في أمر القديمة، وهكذا يظل عمرَه عاجزاً عن الوصول إلى معالي الأمور.

ولعل التردد ناشىء عن ضعف التوكل على الله – تبارك وتعالى- والغفلة عن صلاة الاستخارة، وعدم استشارة الموثوق بعقلهم ودينهم، والله أعلم.

تلك الأسباب – أسباب العجز التسعة الآنفة الذكر – عوامل خطيرة فتّاكة قاتلة لشخصية المرء، ومدمرة لجهده ومطيحة لآماله، وما لم يتداركه الله تعالى برحمة منه وفضل فإنه يظل قابعاً في أَسْره إلى نهاية حياته، فعلى المرء المصاب بها أو بشيء منها أن يسارع إلى علاجها سرعته إلى علاج

الأمراض العضوية الحالّة ببدنه، عسى أن يمنّ الله تعالى عليه بالشفاء منها والتخلُّص من آثارها حتى يكون لبنة مفيدة في بناء أمته، والله الموفق.

العقبات الخارجية:

وهي متمثلة في كيد الأعداء المتربصين، ومكرهم، وأعينهم المفتوحة على كل عمل نافع للمسلمين منتشل لهم من حفرة التخلف والضعف، والذل والهوان، فكم وأدوا من مشاريع نافعة وأعمال صالحة جليلة، وكم أسقطوا من مشاريع جهادية، ومؤسسات إسلامية، وجمعيات خيرية، وهيئات إغاثية.

وهم يقفون اليوم عقبة كبيرة أمام المسلمين حتى في جمع المال لتوزيعه على الأيتام والفقراء وأولاد الشهداء، والعوائل المنكوبة**!!**

وكيد الكافرين شيء عجيب، وأمر غريب، وإحصاءات مهولة، وأعداد وإعداد، ولست ممن يحب سَوْق مكرهم، وذكر كيدهم، وعرض حربهم، وتفصيل استعدادهم، لأني أرى أن هذا مما يفت من عضد المسلمين، ولأن الله تعالى أمرنا بإعداد ما نستطيع من قوة ولم يشترط لنصرنا أن نُعد قوة مكافئة إن لم نستطع، وهذا رحمة من الله تعالى ذكرها في قوله: **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ)** (1) لكن يارب إن لم نتمكن من مكافأتهم في قوتهم ماذا نصنع؟**!** هنا يأتي المدد الإلهي، والنصرة الربانية، يعني: يصح أن يقال: إن الباقي إنما هو عليه جلّ جلاله.

ولكني سأورد شيئاً يوضح عظم الكيد ليحسن الاستعداد لا ليحيط بنا اليأس، ويتملكنا الإحباط، ولنفهم ماذا يصنعون حتى نواجه كيدهم مواجهة

---

(1) سورة الأنفَال: آية 60.

شاملة لا مواجهة فردية عاجزة، فإليكم هذه النقاط الموجزة غاية الإيجاز لكنها إن شاء الله معبرة وموقظة:

الاستخراب العالمي (الاستعمار كما يطلق عليه زوراً وبهتاناً):

دنّس الغرب بأقدامة القذرة بلادنا، ففي سنة 1645 احتل الهولنديون الملايو، وفي سنة 1800 استولى الإنجليز على مسقط والبحرين، وفي سنة 1802 احتلوا عدن وسلطنة لحج، وفي سنة 1830 احتلت فرنسا الجزائر، وفي سنة 1869 أخذوا تونس، وفي سنة 1882 احتل الإنجليز مصر ثم السودان، وأخذت فرنسا المغرب سنة 1904، ثم أخذت إسبانيا الريف المغربي، وأخذت إيطاليا ليبيا سنة 1911، وفي سنة 1918 أخذت بريطانيا العراق وفلسطين[1]، وفي سنة 1920 دخل الفرنسيون الشام، وهكذا سقطت بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى في قبضتهم، فنشروا فيها الفساد، وقسموها، وأوجدوا فيها بؤراً للفتن والتناحر، فما رحلوا عنها إلا وقد ضمنوا استمرار القلاقل فيها والمحن والفتن.

الاستشراق:

وهو الدراسات التي يقوم بها نفر من أساتذة الغرب لمناطق الشرق وخصوصاً المناطق الإسلامية، وكانت كثير من هذه الدراسات ممهدة لاحتلال بلاد المسلمين، وتغيير عقائدهم، فالاستشراق كان خادماً أمنياً للكنيسة وللأطماع الغربية في بلاد المسلمين، وكان أغلب المستشرقين بعيداً عن الموضوعية والنزاهة، شديد الحقد على المسلمين. وكان كيد المستشرقين متمثلاً في الطعن في السلام وحضارته وشريعته، وإلقاء الشبهات الكثيرة

---

(1) انظر ((التراجع الحضاري)): 290-291.

عليه وعلى رسوله ﷺ، ومحاولة طمس اللغة العربية، والطعن الكثير في القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام، وكتبوا في كل ذلك كتابات خطيرة تتلمذ عليها نفر من بني جلدتنا وممن تبؤوا المناصب الخطيرة في بلاد الإسلام[1] ولا زال الاستشراق يعمل عمله في ديار الإسلام.

التبشير (ومن حقه أن يُسمى التنفير أو التفكير):

يكفي فيه قول اللورد بلفور (وزير خارجية بريطانيا):

((إن المبشرين هم ساعِدُ جميع الحكومات المستعمرة وعضدها في كثير من الأمور المهمة))[2]:

وقول الدكتور محمد البهي[3] رحمه الله تعالى:

((إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار (الاستخراب) في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية المعاصرة والازداراء بها في المجلات العالمية))[3].

---

(1) انظر للتوسع – مثالاً – كتاب ((التبشير والاستشراق في ميزان الإسلام)) للدكتور عمر قريشي.

(2) المصدر السابق: 5.

(3) مفكر إسلامي ولد بمحافظة البحيرة من مصر سنة 1323 ودرس في الأزهر ثم في ألمانيا ونال منها الدكتوراه في الفلسفة وعملي النفس والاجتماع تولى وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر. له مصنفات كثيرة. توفي سنة 1403. انظر ((تتمة الأعلام)): 2/133-134.

(3) ((التبشير والاستشراق)): 5.

واقرأوا هذا النص الخطير لأحد المبشرين القذرين في مؤتمر في القدس سنة 1935 مخاطباً أمثاله ممن ماتت ضمائرهم وخربت نفوسهم:

((مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها!! ولذلك تكونون أنتم طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خير قيام... لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع العشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات وفي المدارس التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، وفي مراكز كثيرة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها!!... إنكم أعددتم بوسائلكم الخاصة جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد، إنكم اعددتم نشئاً لا يعرف الصلى بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء طبقاً لما أراده الاستعمار لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء...)).

أرأيتم أحط وأسوأ من هذا الخطاب الذي يمتلئ شراً وفساداً وسوء نية، وفساد طوية، وقارنوا بين هذا الجهل المفسد وبين المسلمين الأوائل الذي نشروا الضياء والنور، وكانوا يريدون بالناس ارتقاءً وخيراً ورفعةً.

وللتبشير أهداف ووسائل لا يحتمل هذا المقام إيرادها[1].

الغزو الفكري والحضاري:

وهذا بحر واسع من الكيد يتناول المجالات السياسية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية، واستخدم الأعداء لذلك شبكة واسعة من وسائل الإعلام سيط عليها يهود حاقدون أو صليبيون كائدون، واليهود يسيطرون على آلاف الجرائد والمجلات والقنوات الفضائية والإذاعات في العالم [2]، ويسطرون اليوم على مئات الآلاف من مواقع الإنترنت.

السيطرة على الهيئات والمجامع الدولية:

كالأمم المتحدة وما يتبعها من مؤسسات كثيرة ومتنوعة، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي ومحاولة تركيع المسلمين من خلال هذه المؤسسات العالمية.

بث المذاهب الضالة والتيارات الإباحية:

كالشيوعية، والرأسمالية، والبهائية، والقاديانية، والوجودية، وجماعات الشذوذ الجنسي، ونشر أندية الروتاري الماسونية، واليوم ينشرون ضلالهم عن طريق ((ستار أكاديمي))، و((سوبر ستار)) وغيرها من السابقات المشبوهة، والإباحيات المستوردة.

ضرب حركات الإصلاح في العالم العربي والإسلامي:

---

(1) انظر لتوسع – مثلاً – المصدر السابق.

(2) انظر للتوسع – مثالاً – النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، للأستاذ فؤاد الرفاعي.

وذلك عن طريق تشويه صورتها، وتحريض الحكام عليها، والتحريش فيما بينها، إلخ...

الاحتلال العكسري المباشر في هذه الأيام:

كدخول الأمريكان أفغانستان والعراق، والتهديد باستعمال القوة ضد بلدان أخرى في العالم الإسلامي.

هذه بعض صور الكيد موجزة غاية الإيجاز؛ إذ ليس تفصيلها من شأن هذا الكتاب لكن يكفي ما أوردت دليلاً واضحاً على هذا الكيد العظيم.

وبعد هذا كله أقول: ما الحل؟ وما الحيلة في تلك العقبات الثلاث: عقبة المجتمع ، والعقبات الشخصية، والعقبات الخارجية؟

أما **العقبة الثانية** فلا حيلة للمرء فيها إلا أن يغير من طبعه، ويقلل من تأثير تلك العادات عليه، أو في حال ضعف الذكاء وصعوبة الفهم، فعليه أن ينصرف إلى الأعمال التي تناسب فهمه وذكاء، فإن أخلص وجاهد فسوف يترب عليها أثر نافع مناسب إن شاء الله تعالى.

ويمكن في زماننا هذا تجاوز عدد من صفات الضعف والخصائص المقعدة، والأمراض الشخصية والنفسية عن طريق العلاج بالدورات الإدارية، ودورات تنمية النفس والشخصية، ودورات البرامج اللغوية العصبية – على ملاحظات ألحظها في تلك الدورات ينبغي مراعاتها، ملاحظات شرعية وملاحظات في آليات التدريب – وغيرها من الدورات التي كثرت في زماننا كثرة لافتة، وفيها الجيد والرديء، والغث والسمين، والمبالغ والمقبول، فعلى المرء أن يتخير منها المفيد النافع قدر إمكانة، والعاجز البأس هو الذي يظل يشاهد ضعفة، ويلاحظ تقصيره وعجزه، ثم هو لا يحرك ساكناً، ولا يحاول القفز فوق ضعفه والدوران حول عجزه.

ويمكن أيضاً تجاوز عدد من خصال الضعف بمصاحبة الأقوياء، ومؤاخاة الأصفياء، والتقرب إلى العاملين، والاعتبار بحال الصالحين، وطلب الصحبة الصالحة، وقراءة كتب التاريخ والأدب التي هي مليئة بالعظات والعبر، وهي من أعظم المحفزات، وأقوى المثيرات في النفوس الرغبة في العمل والإصلاح.

أما **العقبة الثالثة** في التي ينبغي ألا تُهملَ لكن في الوقت نفسه الا تُضخم ويُهوّل من شأنها، وينبغي أن يعرف المرء جملة من الآيات المعينة له على تجاوز هذه العقبة، وعدم الالتفات إليها كثيراً، فمن ذلك قوله تعالى:

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون)[1].

((الله مُتِم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومُظهر دينه على كل دين، فهذا الخري لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمَن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمديّ))[2].

وقال تعالى: ﮋ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﮊ[3].

وقال سبحانه: ﮋ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﮊ[4]

---

(1) سورة الأنفال، الآية 36.

(2) ((تفسير القرآن العظيم)): 595/3.

(3) سورة غافر، الآية 25.

(4) سورة آل عمران، الآية 175.

أما إن انتفش الكفار في الأرض وعلوا وتمكنوا فإن الله تعالى ينّبه المسلمين ألا يغتروا بهذا الباطل المنتفش، وأن ينظروا إليه بالمقياس الإيماني، فيقول سبحانه: ژ چ چ ي ي ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ژڑ ک ک ژ [1].

قال الأستاذ سيد رحمه الله تعالى:

((وتقلُّب الذين كفروا في البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطات، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة، يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان، ويعانون الأذى والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد، وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويتمتعون، ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة بل في مسلاة، ويحيك من شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالاً بطراً ولجاجاً في الشر والفساد، هنا تأتي هذه اللمسة: ژ چ چ ي ي ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ژڑ ک ک ژ متاع قليل ينتهي ويذهب، أما المأوى الدائم الخالد فهو جهنم وبئس المهاد))[2].

وهذا كلام من ذهب ينزل على قلوب المؤمنين برداً وسلاماً، ويجعل الأعداء ومخططاتهم وكيدهم في مهب الريح.

وهذا الكلام لا يعني ألا يعني ألا نستعد للأعداء، بل ينبغي الإعداد النفسي والجسدي والعسكري والسياسي والإعلامي والاقتصادي، وينبغي أن

---

(1) سورة آل عمران، الآية 197.

(2) ((في ظلال القرآن)): 543/1.

نُحسن الدعوة إلى الله تعالى عن طريق جماعات ومؤسسات وهيئات، وأن نحاول بكل جهدنا الوقوف في وجه كيد أعدائنا ومخططاتهم لكن دون مبالغة في تقدير قوتهم حتى لا تصاب الأجيال بالإحباط واليأس.

وقد أثبتت الأحداث الماضية، أن الأشخاص العظماء الذين عملوا أعمالاً جليلة أمضوها على رغم أنف الكافرين ومعارضتهم، وأنهم لم يستطيعوا عمل شيء لإيقافها، وإليكم مثالاً من العصر الحاضر: إنه الطبيب البشري الكويتي عبدالرحمن السميط حفظه الله تعالى ووفقه، فقد استطاع بفضل الله تعالى أن يغير التاريخ في إفريقيا السوداء حيث اجتمعت قوى الكفر في كولورادو بأمريكا سنة 1398-1978 لتقرر أنه ما إن تأتي سنة 2000 إلا والقارة الإفريقية السوداء نصرانية، فخيّبهم الله تعالى على يد عباد له أبرزهم – في ظني – هو هذا الطبيب الذي وفّقه الله تعالى لبناء آلاف المساجد، وحفر آلاف الآبار، وعمل بعض الكليات العلمية والإذاعات المحلية، وأنشأ عدداً كبيراً من المستوصفات والمستشفيات، وأسلم بفضل الله تعالى ثم بجهوده وجهود مَن معه عدد ضخم أخبر هو أنهم قد بلغوا خمسة ملايين ونصفاً، وهو رقم يُخضع له، وعيّن عدداً كبيراً من الدعاة، وأنشأ فروعاً للجنته لجنة مسلمي أفريقيا في دول إفريقية كثيراً، وأنشأ جمعية العون المباشر، وعمل أعمالاً كثيرة لم يستطع الفاتيكان – على فتكه وشدة تأثيره – أن يصنع له شيئاً، وما استطاعت دول الكفر إيقافه، وتخطى العقبات التي وضعوها في طريقه، وأنشأ عملاً جليلاً، وترك أثراً عظيماً لا يُنسى على مر الزمان ولا كرور الليالي والأيام إن شاء الله تعالى.

أما **العقبة الأولى** – عقبة المجتمع – فهي أشد العقبات، وأفعلها في النفوس، وهي التي تقرّب المرء من اليأس وتصرفه عن المعالي إن ركن إليها واستجاب لها، لكن كيف العمل وهي شديد فتكها، عظيم أثرها؟ إن السبيل لهذا هو التالي:

الاستعانة بالله تعالى:

وهي نعم العُدّة وقت الشدة، وهي الأمل الذي يخفف كثيراً من المتاعب.

قال النبي ﷺ : ((استعن بالله ولا تعجز، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفّت الصحف))[1].

محاولة الالتفاف حول العقبات والحواجز:

وهي شأن البطل الذكي الموفق، إذ يحاول الالتفاف حول هذه العقبات والحواجز أو القفز فوقها بكل ما أوتي من قوة:

جمعني لقاء ببعض الدكاترة الأكاديميين في إحدى الجامعات، وكانوا على غاية من التذمر والتشاؤم يصعب وصفها، وذلك بسبب ضعف ميزانية البحث العلمي، وبسبب ضعف المعامل والمختبرات، فقلت لهم: إن هذا شيء معلوم، وأمر واقع لكن لابد لكم من تجاوزه بطريقة ما، ولو أن تتحدثوا مع الأغنياء والوجهاء، وتوصلوا الأمر إلى المسؤولين، لكن لا تظلوا هكذا متشائمين محبطين، والعجيب أنهم كانوا كلهم حديثي التعيين فكيف لو طال عليهم العمر وامتدّ بهم الزمان إذاً لكان التشاؤم والإحباط قد رسخ فيهم

---

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب أبواب القيامة. بألفاظ مقاربة عن ابن عباس رضي الله عنه وأوله: كنت خلف النبي ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده وعلق المحقق بأن إسناده قوىّ.

رسوخاً يصعب تجاوزه، والشاهد من هذا المثال الذي أتيت به هو كيف أنهم استسلموا تماماً لهذه العقبة التي يمكن إزاحتها بالصبر والعمل.

ومثال آخر مهم:

جمعني القدر في إحدى كليات الهندسة بأستاذ مهندس مصمم للطائرات، كان قد خرج من بلده عقب إغلاق مصنع الطائرات فيها بضغط غربي، فقلت له: ماذا تصنع في هذا البلد وليس فيه مصنع للطائرات؟ فقال: أريد أن أكون بجوار الحرمين!!

فقلت له: يمكن أن تأتي للحرمين في إجازتك السنوية، لكن اذهب إلى ماليزيا أو أندونيسيا وشارك في صناعة الطائرات الإسلامية، ولا ترضَ بالعجز والقعود. فنظر إليّ نظر الذي انتبه، ووعد خيراً.

عدم الالتفات إلى العقبات شبه الوهمية:

والذي أعنيه من العقبات شبه الوهمية هي العقبات التي تنتج بسبب كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، والغيرة، وغير ذلك من الأمراض النفسية، وإنما قلت: هي شبه وهمية لأن له أثراً ولا شك لكن لا يرقى – في أحوال كثيرة – إلى أن يكون أثراً مُقعداً للشخص، وذكر الله تعالى يذهبه، وقراءة القرآن – خاصة سورة البقرة – يزيله إن شاء الله تعالى، والمحافظة على حُسن الصلة بالله يضعفه أيّما إضعاف، ولله الحمد.

4- توطين النفس على العمل مهما أحاط بها من مشكلات:

وهذا أمر ليس باليسير ولا السهل، بل هو في غاية من الصعوبة، إذ يقلّ مِنْ الناس مَن إذا أحاطت به المشكلات لم يتأثر بها التأثُّر المقعد له عن

تحصيل الكمالات وبلوغ المعالي، ولكن أيضاً قليل من الناس مَن يصل إلى المعالي وإلى العمل المؤثر النافع.

- فإذا أزعجتك زوجتك فاخرج من بيتك، أو اجعل بينك وبين نكدها وإلحاحها وإزعاجها – إذا لم يكن له وجه حق وإلا لزمك الاستماع لها- حجاباً، وعوّد نفسك على ذلك إن لم يمكن حل مشكلتها، وكذلك الزوجة مع زوجها المزعج المؤذي إن لم يوجد حل نافع معه، مع الفارق في الوسائل طبعاً.
- وإذا ضايقك مديرك ورئيسك، وضيّق عليك فعُدَّ هذا من جملة البلاء الذي لابد لك منه، ونفَّس بعد خروجك من عملك أو غيِّر هذا العمل المزعج.
- وإذا أتعبك الأولاد فقل لنفسك: وهل من أولاد على وجه الأرض لا يُتعبون؟!!
- وإذا ضاقت علكي الأرض بما رَحُبت فافزع إلى المولى عسى أن يكشف عنك الغمّة ويوصلك إلى مرادك.

وهكذا بهذا السلوك تنجو من الاكتئاب والضيق المقعدين لك عن بلوغ المعالي ومواصلة العمل الذي به ستترك الأثر النافع في دنيا الناس.

5- توقع البلاء:

وهذا أمر مهم في رد كل العقبات، إذ لا بد للمرء أن يفهم أنه إن تصدّى لعمل كبير ضخم فسيجد من المشكلات الكثيرة الضخمة الشيء الكثير، ولا بد له أن يفهم أيضاً أن هذا من جملة البلاء الذي لابد للصالحين والعاملين منه.

قال تعلى : ﮋ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﮊ[1].

وقال تعالى: ﮋ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﮊ[2].

وقال جلّ من قائل: ﮋ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﮊ[3].

الله أكبر: يريد الله تعالى أن يرى ما نصنع حال البلاء وماهي أخبارنا آنذاك، فلنرِ الله تعالى من أنفسنا قوة، وعزماً، ومضاءً، وصبراً، ورضىً.

وقال ﷺ عندما سئل عن أشد الناس بلاءً فقال: **((الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة))**[1]

ثم ما هو حجم هذا البلاء النازل بأحدنا مقارنة بما كان يبتلى به الأنبياء والصالحون من قتل وتعذيب ونكال؟**!**.

فعن خباب رضي الله عنه قال: ((أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهُه فقال:

---

(1) سورة العنكبوت: الآية 2+3.

(2) سورة الأنبياء، الآية 35.

(3) سورة محمد: الآية 31.

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه وقال: حديث حسن صحيح. وانضر – للتوسع في تخريج الحديث – ((فتح الباري)): 21/221-222.

((لقد كان من قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه))[2].

وهناك سؤال مهم:

قد يسأل سائل: كيف أعمل وأنا محاط بالمشكلات؟!

فأقول له: وكيف تعمل في وظيفتك وأنت محاط بالمشكلات؟! هل يرضى منك أرباب العمل أن تعتذر عن عدم العمل بسبب المشكلات العائلية أو الشخصية؟! وهل إذا رضوا يوماً أو أسبوعاً أو شهراً فسيرضون بآخر؟! فإذا كنت قد وطّنت نفسك على العمل الوظيفي وقد أحاطت بك المشكلات فوطن نفسك أيضاً على العمل للوصول للأثر النافع وقد أحاطت بك المشكلات!!

كنت قد عملت مدرّباً للطيارين مدة، فكنت أقول لطلبتي: إذا كنتم تعانون من مشكلة طلبتُ لكم إجازة من التدريب لتحلُّوا مشكلاتكم ثم تعودوا أو توطِّنوا أنفسكم على نسيان المشكلات حال التدريب، لأني لن أقبل من أحد منكم عذراً لتقصيره يعزوه إلى مشكلاته؛ إذ عمل الطيران خطير وحساس ولا يقبل مثل هذه الأعذار.

وهكذا الطبيب الجراح يُجري أعقد العمليات في الدماغ والقلب وهو لابد له من مشكلات تعكر عليه لكنه ينساها ساعة عمله، إلخ ...

---

(2) صحيح الإمام البخاري: باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

فعمل الدعوى أحرى وأولى أ يُمارَس مهما كان الإنسان محاطاً بالمشكلات والهموم، ومن ذا الذي خلا يوماً من الهموم؟ ومن ذا الذي خلص من المشكلات وأنواع الغموم؟

الخاتمة

في نهاية هذا المطاف أعود لأذكر إخواني العاملين من الدعاة والمشايخ والعلماء وطلبة العلم والفضلاء بأن من أعظم نعم الله تعالى على العبد أن يرزقه عملاً صالحاً ينتج عنه أثر عظيم، يظل يتقلّب في حسناته إلى يوم يلقى الله تعالى، وما سقته في هذا الكتاب – على وجاوته – أكبر دليل على هذا الذي أقوله، فليحرص إخواني على طلب هذا العمل، وليعضوا عليه بالنواجذ إن وجدوه، فهو – والله – الذخر الأعظم والغنيمة الكبرى.

فيما رب أسألك أن تهبنا هذا العمل العظيم، وتجود علينا بأثره الجليل، وأسألك ألا تموت آثارنا بموتنا، وألا ينسى الناس أعمالنا فلا يعودون يذكروننا فيترحمون علينا ويستغفرون لنا، وأن تجعل كل ذلك خالصاً لوجهك الكريم، لا رياء فيه ولا سمعة، ولا منًّا فيه ولا جحود لنعمك، ولا نكران لفضلك، ولا نسيان لآلائك، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ منه ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من صفر سنة 1427 من هجرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١ - اقتصاد المستقبل: د. توفيق الشاوي.

٢ - التبشير والاستشراق في ميزان الإسلام: د. عمر بن عبدالعزيز قريشي.

٣ - تتمة الأعلام: محمد خير رمضان يوسف. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الثانية سنة 1422.

٤ - التحرير والتنوير: الأستاذ الطاهر بن عاشور (ت 1393) نشر الدار التونسية للنشر ، سنة 1404.

٥ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: محمد بن عبدالرحمن المباركفوري (ت 1353) مراجعة الأستاذ عبدالوهاب عبداللطيف.

٦ - التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه: د. علي عبدالحليم محمود، نشر دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى سنة 1414.

٧ - تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت774) نشر دار الشعب بالقاهرة، تحقيق مجموعة من الدكاترة.

٨ - التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد 1917-1948: الأستاذ محسن صالح، نشر مكتبة الفلاح، الكويت.

٩ - حكايات كفاح: ج. كفاح فياض. نشر قرطبة للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى 1426.

١٠ - ذكريات: الأستاذ علي الطنطاوي، نشر دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى سنة 1407.

١١ - ذيل الأعلام: أحمد العلاونة، نشر دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى سنة 1422.

١٢ - سنن ابن ماجة القزويني: (ت 281) تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، نشر دار الحديث، القاهرة.

١٣ - سيدنا محمد رسول الله ﷺ: شمائله الحميدة وخصاله المجيدة: عبدالله سراج الدين، نشر مكتبة دار الفلاح، حلب، الطبعة السابعة سنة 1410.

١٤ - صحيح مسلم: بشرح النووي، وشرح صديق حسن خان، وشرح القاضي عياض.

١٥ - صلاح الأمة في علو الهمة: سيد بن حسين عفاني، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1417.

١٦ - طريق النصر في معركة الثأر: اللواء ركن محمود شيت خطاب، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة 1425.

١٧ - عجز الثقات: لمصنف هذه الرسالة، نشر دار الأندلس الخضراء،جدة، الطبعة الأولى سنة 1426.

١٨ - عداء اليهود للحركة الإسلامي: زياد محمود علي، نشر دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، الطبعة الأولى سنة 1402.

١٩ - عظماء ومشاهير معاقون غيروا مجرى التاريخ: أحمد الشنواني، نشر دار الكتاب العربي. دمشق – القاهرة. الطبعة الثانية سنة 2004.

٢٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت 852)، مراجعة وضبط عدد من الأساتذة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة 1398.

٢١ - الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: الأستاذ أحمد بن عبدالرحمن البنا (ت 1375)، نشر دار الشهاب، القاهرة.

٢٢ - في ظلال القرآن: الأستاذ سيد قطب (ت 1386) نشر دار الشروق ودار العلم، جدة.

٢٣ - المعجم الوسيط: تأليف مجموعة من الأساتذة، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٢٤ - المؤتمر النسائي الشرقي: نشر المطبعة العصرية بمصر.

٢٥ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، والتهذيب لواضع هذه الرسالة، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة الطبعة الأولى سنة 1411.

٢٦ - النشر في القراءات العشر: الإمام ابن الجزري (ت 833)، تصحيح الشيخ علي محمد الضباع.

٢٧ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: إعداد مجموعة من الأساتذة، نشر دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة الطبعة الأولى سنة 1418.

فهرست الموضوعات

الموضوع الصفحة
إهداء ....
قالوا ....
مقدمة ....
تمهيد ....
• المبحث الأول: ذكر الآثار في كتاب الله تعالى وسنة المختار ﷺ ....

١ -الأثار في كتاب الله تعالى ....
٢ -الآثار عن النبي المختار ﷺ ....
• المبحث الثاني: الآثار: قدر وتفاوت ....
معنى الآثار ....
تفاوت الآثار المحمودة ....
ملحظ مهم ....
• المبحث الثالث: فوائد العمل لترك الآثار الجليلة وهي فوائد دنوية وفوائد أخروية ....
١ -سد الثغرات الكثيرة الموجودة في ديار الإسلام........................
٢ - الحفاظ على الأوقات..
٣ - الترقِّي إلى الكمال..
٤ - القدوة الحسنة ....
٥ - استيعاب جهود الدعاة..
٦ -إحياء الأمل وتجديد الثقة بانتصار الإسلام............................
٧ - تيئيس الكافرين من الانتصار على هذا الدين ....
٨ - هداية من جنح المسلمين...
• المبحث الرابع: كيفية ترك الآثار المحمودة الجليلة

الركن الأول: حسن الصلة بالله تعالى ....
الركن الثاني : ....
أ - الهمة العالية ....
ب - الثبات ....
جـ- الفاؤل والثقة ....
د- الشجاعة والإقدام ....
هـ- الجدية ....
الركن الثالث: الهدف العظيم ....
الركن الرابعة : العلم الواسع والثقافة المناسبة ....
• المبحث الخامس: أثر فقد أحد هذه الأركان أو أكثر ....
أثر الكبائر في محق الآثار ....
• المبحث السادس: العوائق التي قد تقف حوائل دون تحقيق الأثر المطلوب ....
١ ـعقبة المجتمع ....
٢ ـ العقبات الشخصية ....
٣ ـ العقبات الخارجية ....
الاستخراب العالمي ....

الاستشراق ....
التبشير ....
الغزوة الفكري والحضاري ....
السيطرة على الهيئات والمجامع الدولية ....
بث المذاهب الضالة والتيارات الإباحية ....
ضرب حركات الإصلاح في العالم العربي والإسلامي ....
الاحتلال العسكري المباشر في هذه الأيام..................................
العقبة الأولى -عقبة المجتمع - ....
١ - الاستعانة بالله تعالى ....
٢ - محاولة الالتفاف حول العقبات والحواجز ....
٣ - عدم الالتفات إلى العقبات شبه الوهمية ....
٤ - توطين النفس على العمل مهما أحاط بها من مشكلات ....
٥ - توقع البلاء ....
الخاتمة ....
فهرس المصادر والمراجع ....
فهرس الموضوعات ....